الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي

كلية: الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

السياق غير اللغوي وأثره في توجيه المعنى في تفسير (ابن عطية)

مذكرة تخرج معدّة ضمن متطلبات نيل شهادة الماستر في اللغة العربية

تخصص: علوم اللسان

إعداد الطالب:
– صالح هزلة

إشراف الأستاذ:
– د. نصر الدين وهابي

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرّتبة	الجامعة	الصّفة
أ. مسعودة الساكر	أستاذة مساعد	جامعة الشّهيد حمّه لخضر ـ الوادي	رئيساً
د. نصر الدين وهابي	أستاذ محاضر	جامعة الشّهيد حمّه لخضر ـ الوادي	مشرفاً ومقرّراً
د. كمال بن عمر	أستاذ محاضر	جامعة الشّهيد حمّه لخضر ـ الوادي	عضواً ومناقشاً

الموسم الجامعي: 1435-1436هـ / 2014-2015م

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ
وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ
لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾

[النساء: ٨٢]

شكر وعرفان

أقدّم خالص شكري وامتناني

إلى

الأستاذ المشرف

الدكتور نصر الدين وهابي

خاصة

وإلى

كل من كان له علي فضل

في بلوغي هذا المقام

من قريب أو بعيد

عامة

والحمد لله رب العالمين

أولا وأخيرا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

لقد ساهمت اللسانيات مساهمة جادة في دراسة اللغات البشرية، وبات لها الفضل الكبير في إثراء الدرس اللغوي الحديث موضوعا ومنهجا على حد سواء.

ولعل من أهم الثمرات التي أنتجتها اللسانيات، هي نظرية السياق، والتي تعد بحق من أهم محاور علم الدلالة، حيث جعلت منها نظرية ومنهجا متكاملا في دراسة المعنى.

وقد بات من المسلم به في نظرية السياق، أن العناصر التي تشكل المعنى النصي، تتمثل في معطيات لغوية وأخرى خارجة عن التشكيل اللغوي. وهذا ما يبرز أهمية اتباع هذا المنهج لدراسة المعنى، لأن الاكتفاء بظاهر النص يعتبر غالبا سببا في قصور الفهم.

وما دام أن مراعاة هذه الاعتبارات، اللغوية وغير اللغوية، تمثل الاتجاه الصحيح والضروري في الكشف عن المعنى، وددت الوقوف على مدى اعتبار السياق غير اللغوي في تفسير القرآن الحكيم.

من هنا جاءت هذه الدراسة لتسلط الضوء على أثر عناصر السياق الخارجي في توجيه معنى النص القرآني.

وقد خصصت الدراسة في جانبها التطبيقي، لبيان مدى اعتماد ابن عطية على العناصر الخارجية في تفسيره.

ومما دفعني إلى البحث في هذا الموضوع:

محاولة الوقوف على تطبيقات عملية لمسائل نظرية، من خلال مسألة السياق غير اللغوي وإبراز أهمية مراعاة ما يحف بالنص في توجيه المعنى، إلى جانب خدمة أحد أهم كتب التراث المغربي الذي يبقى حمله أمانة على عاتقنا نحن المغاربة.

ويُتطلّعُ من خلال القيام بهذه الدراسة إلى تحقيق ما يلي:

محاولة قراءة التراث اللغوي –في ضوء اللسانيات- بغرض تأصيل الأطروحات اللغوية المعاصرة.

وعلى ضوء ما سبق ذكره، وضعت للبحث -موضوع الدراسة- خطة مكونة من: فصل تمهيدي مع فصلين أساسيين، مبدوءة بمقدمة، ومقفاه بخاتمة.

فكان الفصل التمهيدي حول (السياق غير اللغوي بين التراث العربي والدرس الغربي) حيث قسمته إلى مبحثين بعد تمهيد شمل مفهوم السياق وأقسامه، وقد تناولت في المبحث الأول نشأة السياق غير اللغوي في الدرس الغربي وتطوره، أما المبحث الثاني تتبعت فيه جهود وأراء العلماء القدامى حول السياق غير اللغوي في التراث العربي بين النظرية والتطبيق، ثم ختمته بعقد موازنة لما لمسناه في تراثنا مع ما يناظره في الدرس الغربي.

والفصل الأول عنونته بـــ:(العناصر غير اللغوية وتوجيه المعنى في السياق القرآني)، فكان صدره عبارة على تمهيد تناولت فيه مفهوم السياق القرآني وأهميته، أما صلبه فقد قسمته إلى مبحثين، ففي المبحث الأول تعرضت فيه إلى دراسة علاقة السياق غير اللغوي بعلوم القرآن، مع ذكر أهم العناصر غير اللغوية في النص القرآني، أما المبحث الآخر تعرضت فيه إلى مفهوم التوجيه في الاصطلاح التفسيري، ثم إلى دلالة السياق ومنزلتها بين القرائن.

أما الفصل الثاني عنونته بـــ:(العناصر غير اللغوية وأثرها في توجيه المعنى في تفسير "ابن عطية")، افتتحته بتمهيد تناولت فيه التعريف بتفسير "ابن عطية" و "علم التفسير"، ثم شرعت في الدراسة التطبيقية المخصصة لبيان أثر العناصر غير اللغوية في توجيه المعنى في تفسير ابن عطية، وقد وزعتها على مبحثين اثنين، حيث خصصت المبحث الأول لدراسة أثر العناصر غير اللغوية المصاحبة لنزول القرآن، بينما جعلت المبحث الثاني مخصصا لدراسة أثر العناصر غير اللغوية الملابسة للنص القرآني.

وانتهى البحث بخاتمة حوت أهم النتائج المتوصل إليها.

هذا وقد اقتضى نوع الدراسة اتباع المنهج الوصفي الذي يعتمد على التحليل.

وقد اعتمدت على كتب لغوية قديمة وحديثة، من أجل تقصي وتأصيل السياق في الدرسين العربي والغربي، كـــ(الكتاب) لسيبويه، و(الخصائص) لابن جني، و(اللغة العربية معناها ومبناها) لتمام حسان، و(نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث) لنهاد موسى، غير أن أهم ما جلى الموضوع، تلكم البحوث التي تناولت السياق وتطبيقاته على القرآن الكريم كـــ(دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى) لفهد الشتيوي، و(السياق في كتب التفسير) لمحمد المهدي حمامي رفاعي.

كما رجعت إلى أمّهات الكتب في بعض جوانب البحث المتعلقة بالبحوث والدراسات القرآنية، ككتب التفسير، وكتب علوم القرآن والإعجاز، وكتب أصول الفقه، وغيرها.

من أبرز الصعوبات الجديرة بالذكر، ارتباط الدراسة بالقرآن الكريم، مما يجعل الخوض في مثل هذه البحوث المتعلقة بالدراسات القرآنية يتطلب مزيدا من الحيطة والحذر لتجنب الزلل، إلى جانب ضرورة الإلمام بعلم التفسير لتفادي الوقوع في التأويل المحظور.

ولهذا تمّ بذل الجهد-قدر المستطاع- تأصيلاً وتحليلاً، عسى أن نوفي الموضوع حقه ويؤتي عملنا أكله.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أتوجه بأسمى معاني الشكر - عرفاناً ووفاءً - إلى الأستاذ المشرف الدكتور نصر الدين وهابي، على ما بذله من حسن الإشراف وخالص النصح.

والله نسأل السّداد والتّوفيق.

الوادي في: 2015/10/10

الفصل التمهيدي

السياق غير اللغوي

بين التراث العربي والدرس الغربي

تمهيد: مفهوم السياق وأقسامه

المبحث الأول: السياق غير اللغوي في الدرس الغربي

المبحث الثاني: السياق غير اللغوي في التراث العربي

تمهيد:

مفهوم السياق وأقسامه

1- مفهومه:

أ- في اللغة:

لفظة (السياق) أصلها (السواق)، وإنما قلبت الواو ياء لكسرة السين،[1] فهي مصدر من ساق يسوق.

ذهب ابن فارس إلى أن: (السين والقاف والواو أصل واحد، يقال ساق يسوق سوقا).[2]

وقد استعمل العرب الألفاظ المأخوذة من مادة (س و ق) على نحو ما يلي:

"ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا ... وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت وتقاودت فهي متقاودة متساوقة، وفي حديث أم معبد: فجاء زوجها يسوق أعنزا ما تساوق أي ما تتابع . المساوقة المتابعة كأن بعضها يسوق بعض"،[3] و"المنساق التابع والقريب".[4]

و"سمي الصداق سياقا وإن كان دراهم أو دنانير لأن أصل الصداق عند العرب هو الإبل وهي التي تساق".[5]

1 - النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: طاهر أحمد الراوي، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي ط1، 1963، ج2، ص424.

2 - مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1999، ج 3، ص 117.

3 - لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط1، بيروت، ج10، ص 166-167.

4 - القاموس المحيط، الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ، ج3، ص 335-336.

5 - المصدر السابق، ج10، ص 166-167.

"والسويق سمي لانسواقه في الحلق من غير مضغ".[1]

ويقال: "ولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحدة، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية"،[2] والساق للإنسان وغيره، "وإنما سميت بذلك لأن الماشي ينساق عليها".[3]

ويقال – عن المحتضر- : "وهو في السوق أي النزع، كأن روحه تساق لتخرج من بدنه"[4] لذا سمي نزع الروح سياقا.[5]

أما سياق الكلام والحديث، في نحو قولنا: " هو يسوق الحديث في أحسن سياق، وإليك يساق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه"[6] يعـــني: "على سرده.." كما جاء في أساس البلاغة.

وعن مفهوم السرد قال الزمخشري : "وسرد الحديث والقراءة جاء بهما على ولاء"،[7] أما ابن منظور فقال: "وسرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا كان جيد السياق له"،[8] إذن فالسياق إذا أضيف إلى الحديث أو الكلام، يعني السرد.

مما سبق ذكره يتضح جليا أن استعمال العرب لمادة (س وق) ومشتقاتها يدور على معنى المتابعة والاتصال والانتظام.

1 – مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تح: صفوان داوودي، دار القلم، ط1، 1412هـــ، ص 436.
2 – الصحاح، الجوهري، تح: شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر، ط1، 1418هـــ،ج2، ص 1138- 1139.
3 – مقاييس اللغة، ابن فارس، ج3 ، ص 117.
4 – لسان العرب، ابن منظور، ج10، ص166-167.
5 – الصحاح، الجوهري، ج2 ، ص 1138-1139.
6 – أساس البلاغة، الزمخشري، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج1، ص 468.
7 – المصدر نفسه، ج1، ص 434.
8 – لسان العرب، ابن منظور، ج3، ص213.

ب- في الاصطلاح:

ينحصر مفهوم لفظ (السياق) لدى القدامى في ثلاث نقاط:

الأولى)- السياق هو الغرض:

أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام، و استخدام المصطلح بهذا المفهوم شائع لدى البلاغيين والأصوليين.

قال السرخسي*: "القرينة التي تقترن باللفظ من المتكلم، وتكون فرقا فيما بين النص والظاهر هي السياق، بمعنى الغرض الذي سيق لأجله الكلام".[1]

وقال السلجماسي** في تعريف السياق بأنه: "ربط القول بغرض مقصود على القصد الأول".[2]

ويظهر هذا لدى الأصوليين مثلا، في نحو تعريف عبارة النص وهو: (ما كان السياق لأجله ويعلم قبل التأمل أن ظاهر النص متناول له)،[3] فالآية: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ ﴾،[4] تدلّ بالعبارة على أن نفقة الوالدات واجبة على الآباء، لأن هذا هو المتبادر من ظاهر اللفظ، وكان السياق لأجله. وتدل بالإشارة على أن

1 - أصول السرخسي، محمد بن أحمد السرخسي، تح: أبو الوفاء الأفغاني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1414هـ، ج1، ص 164.

2 - المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبي محمد محمد القاسم الأنصاري السجلماسي، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، ط1 1401هـ، ص188.

3 - المصدر السابق، ج1، ص236.

4 - البقرة: 233.

* - محمد بن حمد بن سهل، قاض من كبار الأحناف، مجتهد، توفي سنة 483 هجري، ينظر: الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط10، بيروت، 1992، ج5، ص 315

**- علي بن عبد الواحد بن محمد أبو الحسن الأنصاري، توفي سنة 1057 هجري، ينظر، معجم المؤلفين، محمد خير رمضان يوسف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية الرياض، 2004، ج2، ص 471.

نسب الولد إلى أبيه دون أمه، لأن النص في قوله "وعلى المولود له" أضاف الولد إليه بحرف اللام التي هي للاختصاص". [1]

فالمراد بالسياق من خلال التعريف هو الغرض الذي سيق لأجله الكلام، بدليل أن الحكم الآخر الثابت بالإشارة ثابت استنادا إلى النص، وبعلامة لغوية هي اللام التي صرفت دلالتها للاختصاص.

الثانية) السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي قيل النص بشأنها:

وأوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظا الحال والمقام لدى البلاغيين.

الثالثة) أنه ما يعرف بالسياق اللغوي:

ويشمل العناصر اللغوية السابقة للكلام أو اللفظ والعناصر اللغوية اللاحقة له.

قال البناني * : "السياق هو ما يدل على خصوص المقصود من سابق الكلام المسوق لذلك أو لاحقه". [2]

ولعلّ الشافعي يعدّ أوّل واضع له، حين استخدم هذا المصطلح (السياق) بمفهومه اللغوي لّما عقد بابا أسماه (باب الصنف يبين سياقه معناه) في كتابه (**الرسالة**)، وبيّنهُ بقوله: "تبتدئ العرب الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه عن آخره، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه عن أوله"، [3] ويعني بذلك سياق النص.

واستيعاب السياق لجميع ما سبق ذكره هو الذي يحدد المصطلح بمفهومه العام.

---

1 – تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، محمد أديب صالح، المكتب الإسلامي، ط3، بيروت، 1404هـ، ج1، ص 482.

2 – حاشية البناني على شرح الجلال المحلي على متن جمع الجوامع للسبكي، عبد الرحمن بن جاد البناني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط3 1356هـ، ج1، ص 20.

3 – الرسالة، الشافعي، تح: أحمد محمد شاكر، دار التراث، ط2، القاهرة، 1399هـ، ص52.

* – عبد الرحمن بن جاد الله البناني المغربي، فقيه أصولي نزيل مصر، توفي سنة 1198 هـ، ينظر: معجم المؤلفين: ج2، ص 86.

على أنه يمكن أن يطلق على عنصر من عناصر السياق بأنه السياق باعتبار أنه جزء منه.

ومن ثم فقد خلص بعض الدارسين إلى تعريف السياق بما يلي:

السياق هو: "ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية، لها أثر فير فهمه، من سابق أو لاحق به، أو حال من حال المخِاطِب، والمخاطَب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه".[1]

أما في علم اللغة الحديث[2] فهو-كما يرى هاليداي-: "هو النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية".[3]

وأشار أولمان إلى أن السياق: "ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب، بل والقطعة كلها، والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل –بوجه من الوجوه- كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن".[4]

أي أن :" السياق يعني واحدا من اثنين:

أولا- السياق اللغوي: وهو ما يسبق الكلمة، وما يليها من كلمات أخرى

وثانيا- السياق غير اللغوي: أي الظروف الخارجية عن اللغة التي يرد فيها الكلام".

ويتبين مما سبق أن السياق ينقسم إلى قسم لغوي وآخر غير لغوي، وهذا ما سنعرض له في المطلب الموالي.

1 – السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، سعيد الشهراني، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2006، ص 22.

2 – اقتصرنا على أقوال الغربيين لأن المحدثين من العرب جل مقولاتهم اقتباسا أو ترجمة عن الغربيين.

3 – علم النص ونظرية الترجمة، يوسف نور عوض، دار الثقة للنشر والتوزيع، ط1، مكة المكرمة، 1410هـ، ص 29.

4 – دور الكلمة في اللغة، أولمان، تر: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ص 57.

2- أقسامه:

السياق هو قرينة من القرائن المؤثرة في معنى الخطاب مما له علاقة بالخطاب ذاته، وهو في بعض الأحيان يكون بارزا لا يحتاج إلى كثير من النظر والتدبر ليظهر، وأحيانا يحتاج إلى شيء من ذلك، وهذه القرينة إما أن تكون من داخل التشكيل النصي أو خارجه، وبهذا الاعتبار يمكن تقسيم السياق إلى قسمين هما:

أ- السياق اللغوي:

وهو الذي يرتبط بالقرائن اللغوية التي يتضمنها الدليل ويستدل بها على مدلوله من جهة اللفظ والمعنى لتحديد المعنى اللغوي ، أو ما يعبر عنه بالمعنى النحوي أو الوظيفي للجملة الذي قد تتعدد احتمالات دلالاته فيصبح بحاجة الى اعتبار القرائن لرفع تلك الاحتمالات وتحديد المعنى المراد.

ويمكن تعريف السياق اللغوي بـــ: (السياق الذي تمثّله بنية التراكيب اللغوية بأصواتها وكلماتها، وجملها، وعباراتها).[1]

ب – السياق غير اللغوي:

وهو الذي يعتمد على القرائن غير المرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد المتكلم بحسب مقتضى الحال ، وهذا المعنى هو المعبر عنه بالمعنى المراد من الخطاب أو مقتضى الحال ويشتمل على عناصر متعددة تتصل بالمخاطَب والمخاطِب وسائر الملابسات التي تحيط بالخطاب ، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، كاختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة في القرآن الكريم حيث تذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في مقامات مغايرة حسب مقتضيات الأحوال.

1 – فصول في علم الدلالة، فريد عوض حيدر، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، 2005، ص119.

ويمكن تعريفه على النحو التالي:

السياق غير اللغوي هو: (ما ينتظم القرائن المقامية التي تفسر الغرض الذي جاء النص لإفادته، سواء كانت قرائن في الخطاب ذاته أو في المتكلم أو في المخاطَب أو في الجميع).[1] أو (هو السياق الذي يشير إلى النواحي المباشرة للنص والتي تمكن ملاحظتها أثناء حدوث الكلام مثل الإطار والمشاركين والنشاطات التي وقعت فيه.)[2]

وهذا ما يؤكده الدكتور تمام حسان في كتابه (البيان في روائع القرآن) قائلا: "وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية ومفرداتها المعجمية، وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية الى عقلية الى طبيعية كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد ومأثورات التراث وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية ، مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق ".[3]

هذا وقد وردت عدة تقسيمات للسياق، غير أنني آثرت هذا التقسيم الذي يتماشى مع بحثي موضوع الدراسة.

وإذا كان السياق يتكون من هذين الشقين، فإنه أصبح إذن من لوازم الفهم السليم للخطاب العلم بالقرائن الحافة به جميعا.

وتركيزي في هذا البحث منصب على الجانب غير اللغوي، حيث سأتعرض إلى بيان أهميته في الجانب التطبيقي من هذه الدراسة.

1 – نظرية السياق: دراسة أصولية، نجم الدين قادر كريم الزنكي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2007، ص 63.

2 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 – البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1413هـ، ص 221-222.

المبحث الأوّل:

السياق غير اللغوي في الدرس الغربي

1- نشأته:

تنسب النظرية السياقية إلى المدرسة الاجتماعية، والتي تبلورت عند علماء اللغة الإنجليز، إثر بحثهم عن العلاقة بين طبيعة اللغة وطبيعة المجتمع.

وإذا كان فيرث يعد رائد هذه النظرية، إلا أنه لم يأت بها من فراغ، بل لها جذور ممتدة عند العلماء السابقين، وإنما الفضل لهذه النظرية هو سد النقص الحاصل في النظرية البنيوية.

ذلك أن البنيويين اهتموا ببنية اللغة، ودراسة اللغة في ذاتها ولذاتها، مما دفعهم للتغاضي عن السياق الاجتماعي الذي يتم فيه إنتاج الكلام.

ولعل النزعة التاريخية – السائدة قبل النظرة البنيوية– والتي ترى بأنه: "بقدر ما يذهب المرء وراء الحكم المجرد للحقائق القائمة بذاتها، وبقدر ما يحاول أن يمسك بالعلاقات الداخلية ليفهم الظواهر، يدخل المرء مجال التاريخ رغم أنه قد لا يكون واعيا بذلك"،[1] توحي بأن المنهج التاريخي كان يدرك بأن اللغة تدرس من جانبين : جانب لساني داخلي، وهو نظام اللغة، وجانب لساني خارجي، وهو العوامل المؤثرة في اللغة.

غير أن أصحاب النزعة التاريخية لم يتوصلوا إلى ما نادى به دي سوسير رائد المدرسة البنيوية، وذلك لغلبة اللسانيات الخارجية على اللسانيات الداخلية من جهة، ولعدم الفصل بينهما من جهة أخرى.

1 – اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، 1988، ص 53.

ومن ثمّ فإن دي سوسير لما فصل بين كل من اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية تمكن من وضع منهجين للدراسة اللغوية، الأول تزامنيا، وهو يضطلع بوصف نظام اللغة آنيا والآخر تاريخيا، وهو الذي يتعقب التطور الحاصل للغة، آخذا بحسبانه العوامل المختلفة المؤثرة فيها.

ولكن مادام عند دي سوسير: " الموضوع الصحيح والوحيد في علم اللغة، هو النظام اللغوي في ذاته ولذاته"،[1] فقد سعى لإقصاء العوامل الاجتماعية والتاريخية والنفسية المصاحبة لها من الدراسة، ليتسنى له تحقيق مبدأ الاستقلالية الذي نادى به، وليس نكرانا منه لتأثير تلكم العوامل وأهميتها.

وهكذا فإن البنيوية السوسيرية "دعت إلى دراسة العناصر والعلاقات اللغوية بمعزل عن أية معطيات أو تأثيرات خارجة عنها".[2]

ومنه يمكن القول بأن السياق الاجتماعي وإن كان له حضور في اللسانيات الخارجية بالنسبة للبنيويين إلا أنه ليس عنصرا أساسيا في جوهر الدراسة اللغوية نظرا لمنطلقات المدرسة ومبادئها.

وأما أصحاب الاتجاه الوظيفي الذين يعتبرون بأن اللغة هي: "أداة تواصل"،[3] فقد تمّ إغفال سياق إنتاج الوحدات اللغوية عندهم، "إذ أن الوظيفة الرئيسية للأداة التي تمثلها اللغة هي الابلاغ"[4] وركزوا تبعا لذلك على الشحنة الإعلامية التي تحملها هذه الوحدات المنتجة.

1 – اللغة وعلم اللغة، ليونز، ص 55.

2 – المصدر نفسه، ص 58.

3 – مبادئ اللسانيات العامة، أندري مارتينيه، تر: أحمد الحمو، إشراف: عبد الرحمن الحاج صالح وفهد عكام، المطبعة الجديدة، دمشق، 1975 ص 13.

4 – المصدر نفسه، ص 13-14.

ولعل اعتبار المتكلم -بحسب مارتينيه- هو من: " سوف يترك لغته تتداعى لو لم ترغمه الضرورة على أن يجعل نفسه مفهوما للآخرين"،[1] واعتبار اللغة أيضا وسيلة تسمح للناطقين بها "أن يقيموا العلاقات فيما بينهم"،[2] لدليل على حضور السياق الاجتماعي، لأن إقامة العلاقات سياق اجتماعي بلا ريب، كما أن حضور المتكلم وإن كان غير مقصود لذاته، لدليل آخر على اعتبار السياق الاجتماعي، لأن المتكلم أحد عناصره الأساسية.

وحينما أدرك الدارسون -عقب خضم هائل من الدراسات- بأن: " المعضلة الحقيقية التي تواجه اللغويين تتمثل في تركيزهم الزائد على الكلمات"،[3] وتيقنوا بأن "دراسة الكلم دون الرجوع للمجتمع الذي يتحدث به هو استبعاد لاحتمالات وجود تفسيرات اجتماعية للأبنية أو الصيغ الموجودة في الكلام"[4] برز التيار الاجتماعي متبعا دعوة فيرث إلى ضرورة دراسة اللغة ضمن إطارها الاجتماعي الذي تستعمل فيه.

ونهض فيرث بهذا العبء، بعدما استفاد من أعمال الأنثروبولوجي مالينوفيسكي -الذي أشار إلى أهمية سياق الحال- فجعل منهجا في التحليل اللغوي مبني على سياق الحال مع اعتبار أن الكلام اللغوي مكون من أحداث.[5]

وأصبحت الوظيفة الأساسية للسانيات عند فيرث بيان معنى الحدث اللغوي، فالمعنى عند فيرث تجاوز قاعدة علاقة الدال والمدلول، أو اللفظ وصورته الذهنية. بل المعنى يحدد من خلال

1 - مبادئ اللسانيات العامة، أندري مارتينيه، ص 13.

2 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

3 - اللغة في الثقافة والمجتمع، محمد أبو زيد، دار الكتب للطباعة والنشر، 1988، ص 142.

4 - علم اللغة الاجتماعي، هدسون، تر: محمد عبد الغني، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1987، ص20.

5 - ينظر: علم الدلالة، بالمر، تر: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1995، ص 74.، و ينظر: علم اللغة (نشأته وتطوره) محمود جاد الرب، دار المعارف، القاهرة، 1985، ص149.

مستويات لغوية تدريجية (صوتية، صرفية، نحوية، تركيبية)، وكلها ضمن سياق الحال فسياق الحال هو المظلة التي تحتضن هذه النظّم.[1]

2- تطوره:

ترسخت فكرة مراعاة سياق الحال لدى أتباع الاتجاه الاجتماعي، وجسد تلاميذ فيرث مفاهيمه حول السياق الحال، فجاء هاليداي بمنهجه الوصفي، و"الذي يدين فيه لفيرث، و يقوم منهجه في المقام الأول على مفهوم سياق الموقف والنظّرية السياقية للمعنى".[2]

ثم جاء بلومفيلد الذي اعتبر موضوع ومجال علم اللغة إنما هو: " المنطوق الكلامي بصفته أحداثا فيزيائية"،[3] وعليه فإن المعنى عند فيرث يحدد في إطار الموقف، أو بالنظر إليه ، أمّا بلومفيد فإن المعنى عنده هو الموقف نفسه".[4]

وبقول بلومفيلد: "إن قضية المعنى هي أضعف نقطة في دراسة اللغة"،[5] سبب إشكالا في فهم أتباعه لدراسة المعنى، مما أدى بهم إلى إقصاء المعنى، ريثما ظهر منهج المدرسة التحويلية التوليدية فتدارك أتباع بلومفيد خطئهم، فعادوا لدراسة المعنى في ضوء منهج التحويلي التوليدي.

إلا أن ما جاء به تشومسكي لم يسلم من النقد ، فـــ: "علماء اللغة الاجتماعيين رفضوا تجريد تشومسكي حول المتكلم السامع المثالي، ورفض علماء النص وتحليل الخطاب قبول التجريد

1 - توظيف سياق الحال في فهم المعنى عند النحويين والبلاغيين والأصوليين، رسالة دكتوراه، زعطوط حسين، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2012-2013، ص83.

2 - علم اللغة (نشأته وتطوره)، محمود جاد الرب، ص150.

3 - المصدر نفسه، ص159.

4 - المصدر السابق، ص161.

5 - علم الدلالة، بالمر، ص81.

اللساني لنحو اللغة ، وركزوا عند تحليلهم للحوار على أهمية البعد الاجتماعي في الدرس اللساني".[1]

وبأفول هذه النظرية منذ سنة 1970،[2] بزغ اتجاه جديد لدراسة اللغة، ألا وهو الاتجاه اللساني التداولي.

وتحقيقا للبعد الاجتماعي ، الذي بات لا مناص منه في الدراسة اللسانية المعاصرة، اهتمت التداولية بدراسة الجانب الوظيفي للغة متجاوزة التركيز على النظام التجريدي.

وحينما بدأت التداولية (تدرس المعنى في ضوء الموقف الكلامي)،[3] رد الاعتبار لنظرية سياق الحال، وأصبح يدرس المعنى في إطار الموقف الكلامي الذي يشمل (المتخاطبين ، وسياق الكلام والهدف من الكلام) مسوّرا بالظواهر القياسية التالية: (الإحالة ، والاقتضاء ، والمعلومات الإخبارية داخل الكلام وأفعال الكلام ، والاستلزام الحواري).[4]

وهكذا تمكنت التداولية من ضبط دراسة المعنى، متبعة في ذلك منهجا يراعي النظام التجريدي جوهر المدرسة البنيوية، ويراعي أيضا البعد الاجتماعي جوهر المدرسة الاجتماعية.

1 – الدلالة والنحو، صلاح الدين صالح حسنين، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة، ص188.

2 – ينظر: محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، أبحاث للترجمة والنشر، ط1، بيروت–لبنان، 2004، ص46.

3 – الدلالة والنحو، صلاح الدين صالح حسنين، ص 191.

4 – ينظر: المصدر نفسه، ص 190–192.

المبحث الثاني:

السياق غير اللغوي في التراث العربي

1- بين النظرية والتطبيق:

انطلق النحاة في تحليلهم للكلام من مقولتهم المشهورة: (الإعراب فرع المعنى)، وهذه المقولة تعد من جوامع الكلم إذا فهمنا بالإعراب معنى التحليل، لأن كل تحليل لا يكون إلا عند فهم المعنى الوظيفي لكل مبنى من مباني السياق.[1]

وعلى هذا الأساس اعتمد النحاة الاوائل وعلى رأسهم الخليل على السياق في التقعيد النحوي.

و لم يقتصر الخليل على السياق اللغوي فقط أثناء التقعيد، بل اعتمد على سياق الحال كذلك، ويتضح هذا من النماذج التالية:

فمثلا عن توجيه النصب على (التعظيم والمدح) في نحو (الحمد لله أهلَ الحمد)،[2] قال سيبويه: " زعم الخليل أن نصب هذا على أنك لم ترد أن تحدِّث الناس ولا مَنْ تخاطب بأمرٍ جهلوه، ولكنّهم قد علموا مِنْ ذلك ما قد علمتَ، فجعلته ثناء وتعظيما".[3]

وهذا ما يشير إلى اعتماد الخليل على " إرادة المتكلم " في توجيه النصب.

1 - ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 1979، ص337.

2 - ينظر: الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988، ج2، ص62.

3 - المصدر نفسه، ج2، ص65.

ولما سأل سيبويه الخليل عن قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾،[1] وعن قوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذۡ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ ﴾ ،[2] وقوله: ﴿ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴾ ،[3] قـــال: " إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم، لعلم المخبر لأيِّ شيءٍ وضع هذا الكلام ".[4] وهذا ما يؤكد مدى اعتناء الخليل بالعلاقة بين المتكلم والمخاطَب.

وإذا كان الخليل –في هذه الفترة المبكرة من التقعيد النحوي– قد اعتمد اعتمادا واضحا على السياق اللغوي وغير اللغوي في تقعيده النحوي وبيان مبنى التراكيب ودلالاتها، فلا ريب أن تلميذه سيبويه سيستفيد من منهجه في التقعيد، و يقتفي أثره في ذلك.

فقد أوضح سيبويه أن ترتيب العناصر اللغوية داخل التركيب، ومسألة تسويغ التقديم والتأخير، لا تتحدد فقط السياق اللغوي، بل يرجع أحيانا إلى سياق الحال والعوامل الخارجية التي تحيط بالحدث اللغوي، كالمتكلم وموقفه من العنصرين وتقديمه لما يراه محلّ العناية والاهتمام، وهو ما يظهر في عبارته المشهورة: (كأنهم إنما يقدّمـــون الذي بيانـــه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم).

وهكذا تنبّه سيبويه إلى أثر المتغيرات الخارجية في ترتيب عناصر الجملة، وكأنه يرسم بذلك لأبناء اللغة أن يساقوا بين هذه المتغيرات والوجوه الجائزة المناسبة عند استعمال اللغة.[5]

وكما اهتم سيبويه بجميع عناصر السياق اللغوي فقد اهتم أيضا بعناصر السياق غير اللغوي، أو (الحال) كما يسميه بنفسه،[1] كالمتكلم والمخاطَب والعلاقة بينهما وموضوع الكلام

1 – الزمر: 73.

2 – البقرة: 165.

3 – الأنعام: 27.

4 – الكتاب، سيبويه، ج3، ص 103.

5 – ينظر: نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد موسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980، ص 93.

وأثر الكلام والحركة الجسمية المصاحبة للحدث الكلامي وغير ذلك من العناصر غير اللغوية المصاحبة للكلام المنطوق.

ومن أمثلة اهتمامه ببيان العلاقة بين المتكلم والمخاطَب، وما ينتظره المخاطَب من المتكلم أنّ المتكلم إذا قال: (كان زيدٌ) فإن المخاطَب " إنما ينتظر الخبر"،[2] وإذا قال المتكلم: (كان حليما) " فإنما ينتظر – أي المخاطَب – أن تعرّفه صاحب الصفة ".[3]

ويهتم سيبويه ببيان الحال المصاحبة للتركيب، أو ما يسمى بملابسات (المسرح اللغوي)،[4] وما يترتب على ذلك من المفاضلة بين التراكيب، أو الحكم على العبارة بالحسن أو الإحالة الدلالية، كما في قوله: " وذلك أن رجلا من إخوانك ومعرفتِك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبدُ الله منطلقا، وهو زيدٌ منطلقا، كان محالاً؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالانطلاق، و لم يقل هو ولا أنا حتى استغنيت أنت عن التسمية، لأن هو وأنا علامتان للمضمر إذا علم أنّك قد عرفت من يعنى. إلا أنّ رجلاً لو كان خلف حائط، أو في موضعٍ تجهله فيه، فقلت: مَنْ أنت؟ فقال: أنا عبدُ الله منطلقا في حاجتك، كان حسنا ".[5]

يبدو أن أثر السياق في النص واضح في تعيين المعنى المقصود، فالتركيب (أنا عبد الله منطلقا) واحد لم يختلف، وهو صحيح من جهة البناء النحوي، إلا أن الذي اختلف هو السياق الملابس للكلام، عوّل عليها سيبويه في جعل التركيب محالا مرة وحسنا أخرى.

ويتبين لنا مما سبق مدى إدراك سيبويه لتوظيف قرينة الحال أو المقام في توجيهه النحوي.

---

1 – ينظر: المصدر السابق، ج1، ص 272.

2 – الكتاب، سيبويه، ج1، ص 48.

3 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

4 – ينظر: علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، دار الثقافة العربية، 1994، ص87.

5 – المصدر السابق، ج2، ص 80-81.

وقد التفت النحويون بعد الخليل وسيبويه إلى المقام وما يحيط بالسلسلة الكلامية من ظروف وأحوال، وتنبهوا إلى أثرها في فهم المراد، كما هو ملاحظ من كلام المبرد عند حديثه حول حذف الهمزة إذا فُهم المعنى ودلّ عليه دليل.[1]

ومن التفاتات المبرد أيضا ما قاله عند الكلام على حذف المبتدأ: " ولو قلت على كلام متقدم: عبد الله منطلق، أو صاحبك أو ما أشبه هذا لجاز أن تضمر الابتداء إذا تقدم من ذكره ما يفهمه السامع، فمن ذلك أن ترى الجماعة يتوقعون الهلال فقال منهم: الهلال والله، أي هذا الهلال، وكذلك لو كنت منتظرا رجلا فقلت زيد، جاز على ما وصفت لك".[2]

ولعلّ ما يدل على تنبّه القدامى إلى السياق، ومعرفتهم به، ما جاء في مصنفاتهم حول معاني الحروف، ككتاب (معاني الحروف) للزجاجي، الذي أوضح فيه اهتمامه بالسياق الخارجي بقوله: "إن معنى الكلمة يستفاد من التركيب والتضام"،[3] فلم يكتف بإيراد المعاني المعجمية، وهي فكرة أيّدها علماء اللغة المحدثين، إذ يرون أن المعنى يستفاد من النظرة الأفقية في التركيب عبر السياق وليس النظر إليها منفردة.

ويعدّ ابن جني من بين العلماء الذين كانت لهم نظرات صائبة في مجال التحليل اللغوي سبق بها فيرث، حيث لجأ في معالجة كثير من القضايا اللغة إلى السياق، وركز جلّ اهتمامه عيه، وكان يعدّه عاملا أساسيا في فهم دلالة الألفاظ والتراكيب، إذ عقد بابا في (امساس الألفاظ أشباه المعاني)،[4] وآخر في (قوة اللفظ لقوة المعنى)[5] لأمر يقتضيه السياق، وكذلك نجده قد لاحظ أن

1 – ينظر: المقتضب، المبرد، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، 1963، ج3، ص294.
2 – المصدر نفسه، ص82.
3 – حروف المعاني، الزجاجي، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1986، ص21.
4 – ينظر: الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، ط4، بغداد، 1990، ج3، ص265.
5 – ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص266.

الزيادة الحاصلة في الكلمة تزيد من المعنى الذي تدل عليه، وهو أمر موافق لما قال به علماء العربية: "إن زيادة في المبنى تدل على زيادة في المعنى".[1]

والقراءة المتأنية في صفحات الخصائص تظهر لنا أن أبا الفتح كان رائدا في مجال التحليل السياقي، فقد اهتم بسياق الحال وتحليل الحدث الكلامي من أجل كشف المعنى، إلا أن نظرات هذا العالم عن السياق شأنها شأن زملائه في التراث، فقد جاءت متفرقة، تفتقر إلى تنظيم رابط لها في إطار يجمعها في شكل نظرية.

وقد أشار البلاغيون إلى المقام وبينوا أهميته، على نحو ما ورد في قول بشـــر بن المعتمر: "المعنى ليس يشرف بأن يكون من المعاني الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال".[2]

ويقرر البلاغيون أنه: "ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، ولكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات....".[3]

وقد ذهب ابن قتيبة إلى وجوب مراعاة مقتضى الحال، حيث يرى أنه يجب على الكاتب أن يجعل ألفاظه: "على قدر الكاتب والمكتوب إليه وألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس خسيس الكلام".[4]

ويعبر البلاغيون عن مفهوم السياق الحالي بما يسمى مقتضى الحال، ويربطون بلاغة الكلام بموافقته لمقتضى الحال، وقد أوجزوا ذلك في عبارة "لكل مقام مقال"

1 - ينظر: المصدر نفسه، ج3، ص267.

2 - البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجاحظ، ط2، القاهرة، 1970، ج1، ص136.

3 - ينظر: المصدر نفسه، ج1، ص138.

4 - أدب الكاتب، ابن قتيبة، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1982، ص18.

وقد نالت هذه الإشارة "العلاقة بين المقام والمقال" اهتمام البلاغيين،[1] وكانت أساسا مهما في توجيه البحث البلاغي.

ومن جانب آخر، عرف المفسرون منذ بداية التأليف في القرآن الكريم الفرق بين ظاهر الألفاظ ومعانيها فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى (المقالي)، وهو مكون من المعنى الوظيفي يضاف إلى المعنى المعجمي، وهو يشمل القرائن المقالية، كلما وجدت، والمعنى المقامي وهو مكون من ظروف أداء المقال، وهي التي تشتمل على القرائن الحالية.[2]

والحق أن من يقرأ في الأصول التي التزم بها المفسرون في عملهم، ويقابلها مع نظرية فيرث تنكشف له أصالة هذه الفكرة في التراث العربي الإسلامي، وسبق تطبيقها على تنظير فيرث ونستطيع أن نتتبع تبلور مجموعة من العناصر التي تكون لنا هيكل هذا المنهج عند علماء التفسير وفي مقدمتها الأنماط التي استحالت عندهم شروطا وضعوها للمفسر، لاختبار كفايته التي تتمثل في إتقانه لمجموعة من علوم تشبه إلى حد ما مراحل التحليل في نظرية فيرث.[3] وواضح أن جميع الشروط الموضوعة للمفسر لها علاقة بالسياق.

وعلماء التفسير يرون لمن رام تفسير القرآن عليه: " طلبه أولا من القرآن، فما أجمل منه في مكان قد فسر في موضع آخر، و ما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه... فإنها شارحة للقرآن وموضحة له... فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال عند نزوله ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح"،[4] وهذا إدراك واضح من المفسرين لعناصر السياق وأثرها في الكشف عن المعنى، والوصول إلى تفسير

1 – ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989 ص11-12.

2 – اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص339.

3 – دراسة المعنى عند الأصوليين، طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع، ص221.

4 – الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تح: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1988، ص200.

القرآن الكريم، فالمعنى لا يحصل إلا في نطاق علاقات سياقية، ولا يمكن فصل معنى الكلمة بأي حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض فيه.

وعلى صعيد آخر، لقد نبه الأصوليون على أن اللغة ظاهرة اجتماعية،[1] وقد أدركوا أثرها على حياة المجتمع، و "لا يفتأ الأصوليون ينبهون في كثير من المواضيع إلى أن الألفاظ المفردة والتراكيب تتعرض بسبب السياقات اللفظية والمقامية المختلفة لألوان من التغيير الدلالي، ولذلك ينبهون إلى ضرورة الاستعانة بالسياقين اللفظي والحالي أو ما تسميه نظرية السياق بالموقف الكلامي بجميع عناصره"،[2] ويظهر هذا جليا في مباحث دلالات الألفاظ، كمبحث العام والخاص، إذ لا يراد باللفظ العام –غالبا– دلالته على العموم، وذلك أن العموم إنما يعتبر بالاستعمال، ووجوه الاستعمال كثيرة ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان، وما دراستهم للمطلق والمقيد والمجمل والمبين وغيرها، ما هي إلا مراعاة للسياق اللفظي للقرآن والسنة.

وقد استعمل الأصوليون مصطلح السياق استعمالا واضحا في دراستهم، وأرادوا به ما يدل عليه السياق أو الدلالة المستمدة من دلالة سياق الكلام ومقصوده، على نحو ما أشار إليه الزركشي بقوله: "دلالة السياق أنكرها بعضهم ومن جهل شيئا أنكره، وقال بعضهم: أنها متفق عليها في مجاري كلام الله تعالى... والسياق يرشد إلى تبيين المجملات، وترجيح المحتملات وتقرير الواضحات، وكل ذلك بعرف الاستعمال، فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا بالوضع"،[3] فالاستعمال إذن هو الفيصل في معرفة المعنى وليس الوضع (أي وضع اللفظ).

هكذا جاء حديث الأصوليين عن السياق بكل جوانبه من منطلق البحث عن الدلالة أساس البحث الاصولي، وصولا إلى الحكم الشرعي الذي تستقيم معه الحياة الاجتماعية، ومن ثم فقد عرضوا للكلمة على مستوى اللفظ المفرد، وعلى مستوى التركيب الذي هو أساس السياق

1 – دراسة المعنى عند الأصوليين، طاهر سليمان حمودة ، ص225.

2 – المصدر نفسه، ص227.

3 – البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر، ص293.

اللغوي، آخذين في الاعتبار كثيرا من الجوانب التي تستبين معها الدلالة، كالعموم والخصوص والحقيقة والمجاز والمناسبات وقصد الشارع واجتماعية اللغة، فجمعوا بذلك جل العناصر النظرية السياقية التي ينادي بها المحدثون.[1]

وقد أكد هذا الطاهر بن حمودة بقوله: " يبدو واضحا في الدرس الأصولي بعامة إدراكهم للسياق بشقيه اللغوي والاجتماعي، واعتمادهم عليه في الفهم والاستنباط، وتصورهم الدقيق لعناصره المختلفة التي تشمل الموقف الكلامي بأسره، وهم في ذلك يتفقون –في الجوهر- مع نظرية السياق الحديثة، بل إن فريقا من الأصوليين يكادون يشبهون السياقيين المحدثين".[2]

وفي ختام هذا المبحث، نخلص إلى أن العلماء القدامى قد أدركوا مفهوم السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي، وقد وظفوه أحسن توظيف في بحوثهم النظرية وأعمالهم التطبيقية على جميع الأصعدة، غير أنهم لم يلموا شتات مباحثهم المتفرقة في نظرية متكاملة، ولعل نزوع العلماء القدامى إلى الوصول إلى مناط التكليف والانصراف إلى جوهر التطبيق، صدهم عن الالتفات إلى قضايا التنظير والانشغال بذلك.

2- موازنته بالدرس الغربي:

إنّ علماء اللغة قديما وحديثا أدركوا الوظيفة المهمة للسياق، بل إن فكرة السياق ودلالته على المعاني الحقيقية للكلام مطروحة في الفكر الإنساني منذ أفلاطون وأرسطو، " فقد تحدث أفلاطون عن مراعاة مقتضى الحال في الخطابة، وكذلك عرض أرسطو في كتابه (فن الشعر) لموضوع مقتضى الحال، وأشار إلى أن الفكرة هي إيجاد اللغة التي يقتضيها الموقف ويتلاءم وإياه".[3]

1 – نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، عبد النعيم خليل، دار الوفاء، ط1، الإسكندرية، 2007، ص257.

2 – دراسة المعنى عند الأصوليين، طاهر سليمان حمودة، ص233.

3 – الكلمة (دراسة لغوية ومعجمية)، حلمي خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1980، ص 212.

و لم يكن علماء العربية بعيدين عن إدراك وظيفة السياق ودلالته، فقد اعتمد النحاة الأوائل – وعلى رأسهم الخليل وسيبويه –على السياق بشقيه (السياق اللغوي وسياق الحال) في التقعيد النحوي، كما يبدو ذلك جليا من اعتمادهم على السياق اللغوي في بيان مبنى التركيب ودلالته وتجويزهم بهذا السياق حذف أحد عناصر الجملة وطريقة ترتيب هذه العناصر اللغوية داخل التركيب، واستعانتهم بطرق الأداء اللغوي المصاحبة للنطق بالعبارة كالوقف و النبر والتنغيم.

وأما اعتمادهم على سياق الحال فيتضح من استعانتهم بإرادة المتكلم والمخاطَب في تعيين معنى التركيب واهتمامهم بمضمون الرسالة وضرورة اختيار المفردات المناسبة لكل بـــاب واستعانتهم بملابسات الحال في التوجيه النحوي، والحكم على التركيب بالصحة أو الإحالة وتسويغ الحذف استنادا على دلالة الحركة الجسمية والحواس الخمسة وباقي عناصر سياق الحال.

وحيث أن كتاب سيبويه يمثل أولى المحاولات المكتوبة التي وصلتنا من التراث النحوي، فهو يمثل أيضا قمة الدراسات النحوية التي سبقته، ويعد مصطلح (الحال) الذي استخدمه سيبويه أقدم مصطلح في التراث العربي النحوي يقترب من مفهوم (سياق الحال) في أيامنا، ولعل هذا المصطلح عند سيبويه يرجع إلى أستاذه الخليل، الذي أثبت كتاب تلميذه اعتماده الواضح على السياق اللغوي وسياق الحال في دراسة التراكيب النحوية.

وهكذا تلتقي تطبيقات الخليل وتلميذه سيبويه مع أحدث الاتجاهات اللغوية مع تباعد الزمن والشقة،[1] إذ طبقا عمليا وبإحكام جميع عناصر نظرية السياق، على نحو ما عرفته الدراسات الاجتماعية الحديثة، أو كما يقول الدكتور نهاد الموسى عن سيبويه: "فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفزع إلى السياق والملابسات الخارجية وعناصر المقام، ليردّ ما يعرض في بناء المادة اللغوية من ظواهر مخالفة إلى أصول النظام النحوي طالبا للاطراد المحكم. وهو يوافق فيما صدر عنه في

1 – النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف، ط1، القاهرة، 1983، ص115-116.

الكتاب ملحوظات كثيرة مما تنبني عليه الوظيفة ومناهج التوسيع أو اللغويات الخارجية بعبارة دي سوسير، كما أشبهت ملحوظاته ملحوظات اللغويين الاجتماعيين ".[1]

وعليه يمكن أن نقول دون تردد: إنهما يعدان بحق رائدي النظرية السياقية.

ومن جانب آخر، فلقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة (المقام) متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن هذه الفكرة بوصفها من أسس تحليل المعنى تعد الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة.[2]

ولم يكن (مالينوفسكي) وهو يصوغ مصطلحه الشهير يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو يزيد؛ لأن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتبهم تحت مصطلح (المقام)، ولكنّ كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده مصطلح مالينوفسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات.

وإذا ما نظرنا إلى (المقام) على أنه يمثل (سياق الموقف) وجدنا ذلك واضحا عند البلاغيين فهذا عبد القاهر الجرجاني يربط الكلام بمقام استعماله، ومراعاة مقتضى حاله وهو لب دراسة المعنى اللغوي عنده، ومنبثق من نظريته للنظم، وثار على اللغويين العرب؛ لأنهم لم يستفيدوا من مبدأ جيد وضعه سيبويه، مؤداه ربط الكلام بمقام استعماله.

ويرى الدكتور كمال بشر أنّ البلاغيين قد وفقوا في إدراك شيء مهم في الدرس اللغوي وهو المقام، ولكنهم – كعادتهم – طبقوه بطريقتهم الخاصة، لقد كانت عنايتهم في "المقام" موجهة نحو الصحة والخطأ أو نحو الجودة وعدمها. ولهذا كانت نظرتهم إلى المقام أو مجريات الحال أو ما يسميه هو – المسرح اللغوي نظرة معيارية لا وصفية.[3]

1 – نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد موسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980، ص88-96.

2 – ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، ص337.

3 – ينظر: دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار المعارف، مصر، 1969، ص64.

وبذلك يختلف المقام عند البلاغيين عن سياق الموقف عند المحدثين.

أضف إلى ذلك أن المقام عند البلاغيين معيار جمالي، أي يحكم بمراعاته ببلاغة المقال وبعدم مراعاته بعدم البلاغة.[1] وبهذا يكون النحاة أقرب إلى مفهوم (سياق الحال أو الموقف) من البلاغيين.

أما علماء علوم القرآن والمفسرون فقد عولوا في دراسة النص القرآني وفهم دلالته على جانبي السياق: اللغوي الكلي أو ما يسمى بـــ(سياق النص) و (سياق الموقف)، إذ نظروا إلى الآية القرآنية أو مجموعة الآيات على أنها جزء من نص متكامل هو القرآن، ومعنى ذلك أنهم لا يعتمدون على السياق اللغوي الجزئي المتمثل في الآية الواحدة أو مجموعة الآيات المعزولة عن سياقها الكلى.[2]

ويتمثّل سياق الموقف عندهم فيما عُرِفَ (بأسباب النزول)، فقد اعتنوا بمعرفة أسباب النزول لآيات النص القرآني؛ لأنها تعينهم على فهم معانيه.

وعلى صعيد آخر، فقد اعتمد علماء (أصول الفقه) على فكرة السياق في بيان المعنى في النصوص الشرعية، إذ يعد اللجوء إلى قرائن السياق من وسائلهم لتحديد المعنى، و"قد وعوا تماما أن ثمّة نوعين من القرائن السياقية، الأولى هي القرائن اللفظية، والثانية هي القرائن المقامية، وفهموا الأثر الذي تقوم به هذه القرائن في تحديد دلالة النص ".[3]

ومما سبق يتبين لنا أنه بالإضافة إلى وعي علمائنا القدامى الكبير لوظيفة الســـياق وأهميته كان لهم فضل السبق في تطبيق ذلك في جميع المجالات، غير أنه بسبب انتشار أفكار الغربيين واستحسان آرائهم من جانب، والغفلة عن تنقيب التراث وإحيائه من جانب آخر، غُطيت جهود علماء العربية القدامى وغُمط حقهم -إما جهلا أو تجاهلا- من قبل العلماء المحدثين.

1 - ينظر: أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته (دراسة نصية من القرآن)، فتحي ثابت علم الدين، رسالة دكتوراه ، كلية الدراسات العربية والإسلامية، المنيا-مصر، 1994، ص74.

2 - المصدر نفسه، ص79-80.

3 - البحث الدلالي عند الأصوليين، محمد يوسف حبلص، مكتبة عالم الكتب، ط1، 1991، ص12.

إذن، فأقصى ما يمكن أن نعترف به من فضل للنظريات الحديثة ونظرية (فيرث) السياقية هو وضع الإطار النظري للفكرة في إطار نظرية متكاملة الجوانب، وتسمتها بـــ: (نظرية السياق).

الفصل الأول

العناصر غير اللغوية

وتوجيه المعنى في السياق القرآني

تمهيد: مفهوم السياق القرآني وأهميته

المبحث الأول: السياق غير اللغوي وصلته بعلوم القرآن

المبحث الثاني: السياق غير اللغوي وتوجيه المعنى

تمهيد:

مفهوم السياق القرآني وأهميته

1- تعريفه وأنواعه:

أ- تعريفه:

السياق القرآني في معناه العام، ما هو إلاّ جزء من عموم السياق، إلاّ أنّ النص القرآني متميز عن باقي النصوص، مما جعل للسياق القرآني خصائصه المميزة.

ولكي نصل إلى فهم مراد الله على الوجه الصحيح، لا بد إذن من مراعاة تلك الخصائص المميزة.

وما يميز السياق القرآني عن غيره يظهر في ثلاثة جوانب، وهي:

أولاً)- من حيث المقاصد:

تتضمن الآية الواحدة من القرآن أغراضا عدة، وتتآلف مع ما جاورها من آيات في نظم بديع وتكامل فريد، مشكلة أغراضا متوخاة في مقاطع متتالية ضمن سور متعاقبة، في كتاب واحد حوى على المقاصد الكلية التي من أجلها نزل الوحي.

لهذا وجب: "على المفسر مراعاة التأليف والغرض الذي سيق له".[1]

1 - الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج1، ص185.

ثانياً)– من حيث النظم:

إن الأسلوب البياني الذي ائتلف منه القرآن يمثل نسيجا محكما يتفرد به عن سائر الكلام.

وإذا كان: "أكثر المحققين من علماء العربية والبيان يثبتون المناسبة بين الألفاظ والمعاني"،[1] ولا ريب أن نظم القرآن يمثل "قاعدة الفصاحة وواسطة عقد البلاغة"،[2] إذن فلابد من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النظم، عند القيام بتفسير كلام الله.

وفي هذا الصدد، قال الخطابي ":وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لحام الألفاظ، وزمام المعاني، وبه تنتظم أجزاء الكلام، ويلتئم بعضه ببعض".[3]

فالنظم القرآني إذن هو خاصية مميزة في السياق القرآني، ولا يمكن تفسير القرآن إلا بمراعاتها.

ثالثاً)– من حيث ملابسات التنزيل:

أسباب النزول والأحوال التي نزلت فيها الآية من أعظم ما يدل على تحديد الغرض والمعنى المقصود في الآية، وعليه فلابد من اعتبار هذه الخاصية في السياق القرآني.

قال الشاطبي في الضابط المعول عليه في الفهم: "إن المساقات تختلف باختلاف الأحوال والأوقات والنوازل، وهذا معلوم في علم المعاني والبيان".[4]

وقال السيوطي في الإتقان: "قال الواحدي: لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها".[5]

---

1 – مجموع الفتاوى، ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، دار عالم الكتب، 1412هـ، ج20، ص418.

2 – البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج1، ص311.

3 – إعجاز القرآن، الخطابي، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ص36.

4 – الموافقات، الشاطبي، تح: محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1975، ج4، ص266.

5 – الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج1، ص93.

وقد جمع ابن تيمية هذه العناصر جميعاً فقال: "وتختلف دلالة الكلام تارة بحسب اللفظ المفرد، وتارة بحسب التأليف، وكثير من وجوه اختلافه قد لا يبين بنفس اللفظ بل يرجع فيه إلى قصد المتكلم، وقد يظهر قصده بدلالة الحال".[1]

من خلال ما سبق يمكن تعريف السياق القرآني كالتالي:

"هو ما يحيط بالنص من عوامل داخلية أو خارجية ، لها أثر فير فهمه ، من سابق أو لاحق به ، أو حال من حال المخِاطِب، والمخاطَب، والغرض الذي سيق له، والجو الذي نزل فيه".[2]

ب– أنواعه:

السياق القرآني يختلف عن أي سياق آخر، وذلك أنه مكون من أربعة دوائر من السياق بعضها داخل في بعض ومبني عليه. وهذا من أعظم ما يتميز به القرآن العظيم، بل هو من مظاهر إعجازه وبلاغته. وهذه الأنواع هي:

سياق القرآن، وسياق السورة، وسياق النص أو المقطع أو الآيات، وسياق الآية.

أولا– سياق القرآن:

المراد بهذا النوع من السياق القرآني، مقاصد القرآن الأساسية، والمعاني الكلية التي تسمى بالكليات في القرآن، والأساليب المطردة في القرآن التي تسمى بعادة القرآن. وعلى هذا فيمكن تقسيم هذا النوع إلى وجوه:

1 – الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، تح: حسنين مخلوف، دار المعرفة، ط1، 1486هـ، ج3، ص208.

2 – السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، السعيد الشهراني، ص22.

الوجه الأول)– مقاصد القرآن:

القرآن مبني على أغراض ومقاصد أساسية، وهذه الأغراض والمقاصد معتبرة في تفسير كلام الله تعالى كله، بل يجب الاعتماد عليها في كل سورة وآية منه حسب ما يقتضي المقام فيها.

ومقاصد القرآن ظاهرة فيه، وقد أجمل ابن عاشور مقاصد القرآن كلها في ثمانية مقاصد: الأول: إصلاح الاعتقاد، الثاني: تهذيب الأخلاق، الثالث: بيان التشريع، الرابع: سياسة الأمة وصلاحها وحفظ نظامها، الخامس: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم، السادس: التعليم بما يناسب حاله عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، السابع: المواعظ والإنذار والتحذير والتبشير، الثامن: الإعجاز بالقرآن ليكون آية دالة على صدق الرسول.[1]

الوجه الثاني)– كليات القرآن:

إن من الألفاظ ما يطرد استعمالها على معنى واحد غالبا في القرآن، فيصير معناه الكلي مقصودا، ومن ثم يجب اعتباره أصلا في التفسير، ويكون الفيصل في النزاع حال الاختلاف بين العلماء.

قال ابن تيمية: "إذا كان في وجوب شيء نزاع بين العلماء، ولفظ الشارع قد اطرد في معنى، لم يجز أن ينقض الأصل المعروف من كلام الله تعالى ورسوله بقول فيه نزاع".[2]

ومن أمثلة ذلك ما ذكره الشنقيطي في معنى الغلبة قال: "والغالب في القرآن هو استعمال الغلبة بالسيف والسنان".[3]

1 – ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، 1984، ج1، ص8.

2 – مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج7، ص35.

3 – أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والإرشاد، 1403هـ، ج3، ص376.

الوجه الثالث)– عادات القرآن:

يطرد استعمال بعض الأساليب في القرآن على نحو واحد، حتى تصير عادة مألوفة، وبناء عليها يتم استقراء المعاني المقصودة.

ومن أمثلة ذلك:

"كل الأسئلة المتعلقة بتوحيد الربوبية استفهامات تقرير، يراد منها أنهم إذا أقروا رتب لهم التوبيخ والإنكار على ذلك الإقرار؛ لأن المقر بالربوبية يلزمه الإقرار بالألوهية ضرورة، نحو قولـــــه تعالى: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ﴾. [2] [3]".

ثانيا– سياق السورة:

من أعظم دلائل الإعجاز في هذا القرآن العظيم، أنه بني على سور متفرقة لكنها منتظمة في بناء واحد محكم، وكل سورة منها وحدة متكاملة متناسقة، يجمعها غرض واحد يسمى بوحدة السورة أو سياقها.

وسياقها العام هو الذي يحدد مضمون السورة.

ويبين محمد دراز أهمية سياق السورة في معرض دراسته لسورة البقرة بقوله: "إنك لتقرأ السورة الطويلة المنجمة يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرت بنية متماسكة قد بنيت من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وامتد من كل شعبة منها فروع تقصر أو تطول، فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجرات وأفنية في بناء واحد قد وضع رسمه مرة واحدة.. ولماذا

1 – إبراهيم: 10.

2 – الأنعام: 164.

3 – أضواء البيان، الشنقيطي، ج3، ص376.

نقول إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان.. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية".[1]

ثالثا– سياق النص أو القصة:

سياق النص يأتي كجزء ووحدة من جملة السورة، يكون موضوعه واحداً وغرضه واحداً لكنه يتناسق ويتناسب مع وحدة السورة العام.

تتجزأ كل سورة إلى عدة مقاطع، كل مقطع، له موضوع محدد، ويتضمن غرضاً مستقلاً.

قال صاحب الظلال عند بداية تفسيره لآيات النفقة والربا : "منذ الآن إلى قرب نهاية السورة يتعرض السياق لإقامة قواعد النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي يريد أن يقوم عليها المجتمع المسلم، وأن تنظم بها حياة الجماعة المسلمة".[2]

رابعا– سياق الآية:

كل آية في كتاب الله تعالى تحمل غرضاً مستقلاً، وهذا من بين أسرار الفواصل بين الآيات حيث تنتظم الآيات مع بعضها البعض ضمن نسيج محكم مؤلفة بمجموعها غرضا مشتركا.

وقد تناول المفسرون هذا النوع كثيراً في بيانهم لتفسير كلام الله والترجيح بين المعـــاني فيه، ومن أمثلة ذلك:

1 – النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، 1984، ص154-155.

2 – في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، ط23، مصر، 1994، ج1، ص304.

قوله تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ﴾ .[1]

غرض هذه الآية هو بيان شرف النفقة ومضاعفة أجرها، تحريضاً على الإنفاق في سبيل الله تعالى.

قال ابن عطية: "هذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك".[2]

هذه هي أنواع السياق القرآني، تشكل بشقيه اللغوي وغير اللغوي منهجا عظيما في التفسير قصد الوصول إلى مراد الله.

2- أهميته:

إذا كان : "كلام العرب على الإطلاق لابد فيه من اعتبار السياق"،[3] فإن اعتبار السياق في كلام الله أولى، وهذا ما عناه الشاطبي بقوله: "فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المتكلف، فإن فـــرق النظـــر في أجزائه، فلا يتـــوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض".[4]

وقد برزت أهمية السياق لدى المفسرين والعلماء، في جانبين:

1 - البقرة: 261.

2 - المحرر الوجيز، ابن عطية، تح: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1988،ج1، ص355.

3 - الموافقات، الشاطبي، ج1، ص 266.

4 - المصدر نفسه، ج1، ص855.

الجانب الأول)– في فهم دلالة النص:

فعندهم: "السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل والقطع بعدم احتمال غير المراد وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم".[1]

الجانب الثاني)– في ترجيح التأويلات:

كما بين ذلك العز بن عبد السلام: "وقد يتردد أي معنى الآية بين محامل كثيرة يتساوى بعضها مع بعض، ويترجح بعضها على بعض، وأولى الأقوال ما دل عليه الكتاب في موضع آخر أو السنة، أو إجماع الأمة، أو سياق الكلام، وإذا احتمل الكلام معنيين، وكان حمله على أحدهما أوضح وأشد موافقة للسياق كان الحمل عليه أولى".[2]

ونخلص من هذا إلى أن السياق عند المفسرين لم يقتصر على الوظيفة التفسيرية فقط، بل تعداه إلى الوظيفة الترجيحية.

1 – البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ج2، ص335.

2 – الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز، العز بن عبد السلام، دار الحديث، القاهرة، ص220.

المبحث الأول:

السياق غير اللغوي وصلته بعلوم القرآن

1- العناصر غير اللغوية في النص القرآني:

قرائن الحال أو المقام يراد بها عناصر كثيرة تتصل بالمتكلم والمخاطَب، وبالظروف الملابسة للخطاب، أي مجموع الظروف المحيطة بالكلام، وهي تكاد لا تدخل تحت الحصر، بل جزم بذلك الإمام الجويني حيث قال:" أما قرائن الأحوال فلا سبيل إلى ضبطها تجنيسا وتخصيصا"،[1] "ولو رام واجد العلوم ضبط القرائن ووصفها بما تتميز به عن غيرها، لم يجد إلى ذلك سبيلا، فكأنها تدق عن العبارات وتأبى على من يحاول ضبطها بها".[2]

قال الغزالي مبينا وسائل فهم خطاب الشارع: " طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة .. وإن تطرق إليه الاحتمال، فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ، والقرينة إما لفظ مكشوف .. وإما إحالة على دليل العقل.. وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات، وسوابق ولواحق، لا تدخل تحت الحصر والتخمين، يختص بدركها المشاهد لها فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس، أو من جنس آخر حتى توجب علما ضروريا يفهم المراد، أو توجب ظنا.. وعند منكري صيغة العموم والأمر، يتعين تعريف الأمر والاستغراق بالقرائن".[3]

فالسياق بهذا المعنى يشمل كل أنواع القرائن المعتبرة في فهم خطاب الشارع.

---

1 ــ البرهان في أصول الفقه، الجويني، تح: عبد العظيم الدين، طبع على نفقة الشيخ خليفة آل ثاني، 1399هـ، ج1، ص186.

2 ــ المصدر نفسه، ج1، ص373.

3 ــ المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تح: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1412هـ، ج1 ص339ــ 340.

وتنقسم هذه القرائن[1] –بحسب ما آثرنا من تقسيم للسياق– إلى حالية ومقالية.[2]

2– علاقة السياق غير اللغوي بعلوم القرآن:

أ– علم أسباب النزول[3]:

يعدّ "بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن".[4] لأنه لا يمكن تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها.

وعن بيان علاقة السياق غير اللغوي بأسباب النزول، فلعلّ أبلغ ما يذكر في هذا الصـــدد هو تقرير الشاطبي لمدى صلة أسباب النزول بمقتضيات الأحوال عند بيانه للزوم المعرفة بأسباب التنزيل بقوله: "معرفة أسباب التنزيل لازمة لمن أراد علم القرآن، والدليل على ذلك أمران:

أحدهما: أن علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلاً عن معرفة مقاصد كلام العرب، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال :حـــال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطِب، أو المخاطَب، أو الجميع؛ إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حاله، وبحسب مخاطبيه وبحسب غير ذلك.. ومعرفة الأسباب رافعة كل مشكل في هذا النمط، فهي من المهمات في فهم الكتاب ولا بد، ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال.

---

1 – توجد للأصوليين تقسيمات أخرى للقرائن، فبعضهم قسمها إلى سمعية وعقلية، كالقاضي عبد الجبار في الأصول الخمسة ، ص600، وقسمها آخرون إلى لفظية وعقلية وحالية، كالإمام الجويني في كتابه البرهان في أصول الفقه، ج1، ص185، ولكن يمكن رد هذه الأقسام إلى ما ذكرنا بإلحاق القرائن العقلية بالقرائن الحالية، وإلحاق القرائن السمعية بالمقالية واللفظية، فلا مشاحة في الاصطلاح، إذ العبرة في المضمون .

2 ــ ينظر: البرهان في أصول الفقه، الجويني ، ج1، ص185.

3 – سبب النزول هو: (ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمة أيام وقوعه)، ينظر: مناهل العرفان، الزركشي، ج1، ص99.

4– الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ج1، ص93.

وينشأ عن هذا الوجه:

الوجه الثاني: وهو أن الجهل بأسباب التنزيل موقع في الشبه والإشكالات، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال حتى يقع الاختلاف، وذلك مظنة وقوع النزاع.. ".[1]

ونورد فيما يلي مثالا يدل على أهمية معرفة أحوال التنزيل وأسبابه وأثرها في تحديد وبيان المعنى.

روى البخاري: أن مروان بن الحكم قال لبوابه:

"يا رافع؛ اذهب إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرئ منا فرح بما أتى وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبًا، لنعذبن جميعًا !، فقال ابن عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أنزلت في أهل الكتاب! ثم تلا ابن عباس: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾ إلى قوله: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.[2]

قال ابن عباس: سألهم النبيّ ﷺ عن شيء فكتموه إياه، وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما قد سألهم عنه، فاستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم إياه ما سألهم عنه".[3]

فهذا المثال يبين مدى أثر معرفة أسباب النزول في فهم المراد، وأن تفسير الصحيح لم يتأت إلى بالاتكاء على قرائن غير لغوية، ولولا معرفة تلكم الأسباب لما زال الإشكال الوارد في الآية.

1 - الموافقات، الشاطبي، ج4، ص146.

2 - آل عمران: 178.

3 - صحيح البخاري، شرح محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1400هـ، رقم4568، ج6، ص50.

ب- علم المكي والمدني[1]:

يتميز المكي عن والمدني من حيث الأغراض التي نزلت من أجلها السورة، ومن حيث الخصائص الأسلوبية للسورة، تبعا لأحوال المخاطبين بها.

وتظهر من هنا صلة المكي والمدني بالسياق من خلال معرفة غرض الآية من جهة، ومعرفة المخاطب فيها من جهة أخرى.

ج- علم المناسبات:

إن معرفة المناسبات تبين "وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة".[2] وتعين على فهم الآية، ويظهر اتصال السياق بين الآيات.

ونستدل لبيان أهمية المناسبة في توجيه المعنى و إدراك المغزى من الآية، بما ذكره العلماء في مناسبة الآية التالية، لما قبلها من الآيات وما بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾.[3]

فقارئ القرآن لا يفهم ما وجه ورود الأمر بالمحافظة على الصلاة في هذه الآية، التي جاءت وسط الحديث عن الطلاق والمشكلات الأسرية، من دون أن يدرك مناسبة الآية كما بينها البيضاوي بقوله: "لعل الأمر بها في تضاعيف أحكام الأولاد والأزواج لئلا يلهيهم الاشتغال بشأنهم عنها".[4]

---

1 - له تعريفات عدة: "أشهرها أن المكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعدها سواء نزل بمكة أم بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع أم بسفر من الأسفار"، ينظر: الإتقان في علوم القرآن، ج1، ص8.

2 - نظم الدرر في تناسب السور، البقاعي، ط1، حيدر آباد، 1969، ج1، ص18.

3 - البقرة: 238.

4 - أنوار التنزيل، البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ، ج1، ص128.

د- علم الناسخ والمنسوخ[1]:

السياق من أهم ما يميز وقوع النسخ في الآية من عدمه، بل هو من أعظم ما يقرر مقصود الآية حتى مع نسخها، فإن بقاء الآية بعد نسخها لابد وأن يكون لغرض مقصود، وتكون دالة على حكم معيّن بعد النسخ .

ونسوق فيما يلي مثالا عن تقرير السياق للنسخ في الآية :

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ لِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾.[2] الآية صريحة في فرضية الوصية؛ لأن قوله تعالى: "كُتِبَ عَلَيْكُمْ" صريح في ذلك، وقد اختلف المفسرون في بقاء حكم الآية أو نسخه، على عدّة أقوال، والراجح الذي يؤيده السياق، هو أنها منسوخة بآيات المواريث، ولكن يبقى وجوب الوصية عاما لمن عليه حقوق أو ديون، والندب والاستحباب فيها عاماً لغير الورثة، إعمالاً للآية والأحاديث، لأن سياق الآية في بيان الحقوق الواجبة قبل الموت، وقد بينت آيات النساء حقوق الوراثة، فتكون الآية منسوخة في حق الوراثة ويبقى الوجوب في الحقوق الواجبة غير الميراث، ويبقى الوصية لغير الورثة وهي بين الوجوب والاستحباب، والاستحباب أقرب؛ إذ لا دليل من عمل النبي ﷺ والصحابة على وجوب الوصية لغير الورثة .

قال ابن عطية: "قال ابن عمر وابن عباس وابن زيد: الآية كلها منسوخة وبقيت الوصية ندبا".[3]

1 - النسخ هو: رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي. والناسخ هو: الحكم الرافع للحكم. والمنسوخ هو: الحكم المرتفع ، ينظر: البرهان في علوم القرآن، ج2، ص30.

2 - البقرة: 180.

3 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص.244.

هـ- علم المقاصد:

المقاصد هي أساس السياق، لأنه لا يعرف السياق حقيقة إلا بمعرفة الغرض والمقصد الذي جاء من أجله الكلام.

فمعرفة كلام الله تعالى ترجع إلى العلم بمقاصده.

وندلل على هذا بما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ﴾ ،[1] قال الغزالي في بيان غرض الآية وما بني عليه من المعنى والحكم في الآية: "الآية إنما نزلت وسيقت لمقصد وهو بيان الجمعة، وما نزلت الآية لبيان أحكام البياعات، ما يحل منها وما يحرم، فالتعرض للبيع لأمر يرجع إلى البيع في سياق هذا الكلام يخبط الكلام ويخرجه عن مقصوده، ويصرفه إلى ما ليس مقصوداً به، وإنما يحسن التعرض للبيع إذا كان متعلقاً بالمقصود.."[2].

و- علم المتشابه اللفظي[3]

هذا العلم يظهر عظمة القرآن وإعجازه ببلاغته النافذة التي عجز عنها أرباب البلاغة دالاً بذلك على صدق نبوة محمد ﷺ.

ويعتبر السياق هو عمدة حل المتشابه، كما أن المتشابه يجلي السياق من جهة ما يتضمنه من وجوه الاختلاف في التعبير.

قال صاحب رسالة دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي:

1 - الجمعة: 9.

2 - شفاء الغليل، أبو حامد الغزالي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1999، ص51.

3 - هو: "الآيات المتكررة في موضوع واحد متقارب المعنى مع اختلاف في لفظها أو نظمها أو كليهما"، ينظر: دلالة السياق وأثرها في المتشابه اللفظي في قصة موسى، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ص100.

"ومن فوائد علم المتشابه اللفظي عونه في الكشف عن السياق، هذا مع أن السياق يطلب له".[1]

ومثال ذلك قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾،[2] مع قوله في سورة المائدة، والأنعام والنحل: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾.[3]

وجه ابن جماعة الموضعين بالنظر في السياق بأن آية البقرة في سياق المأكول، وحله وحرمته، فكان تقديم ضميره وتعلق الفعل به أهم. وآية المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره، والأمر بتقواه، وأيضاً فآية النحل بعد قوله تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾،[4] وكان تقديم اسمه أهم، وأيضاً فآية النحل والأنعام نزلتا بمكة، فكان تقديم ذكر الله بترك الأصنام على ذبائحهم أهم، لما يجب من توحيده وإفراده بالتسمية على الذبائح، وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل لهم وما يحرم، فقدّم الأهم فيه. والله أعلم".[5]

1 – ينظر: دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، ص139.

2 – البقرة: 173.

3 – الآيات على التوالي: المائدة :3، والأنعام: 145، والنحل: 115.

4 – النحل: 114.

5 – كشف المعاني، ابن جماعة، ص116.

المبحث الثاني:

السياق غير اللغوي وتوجيه المعنى

1- مفهوم التوجيه في الاصطلاح التفسيري:

إن السياق هاد إلى اختيار المعنى المراد من الكلمة بحسب موضعها الملائم لموضوع النص.[1]

والأساس الحاكم لهذا التصور هو أن الكل مهيمن على الجزء وموجه له، بل مؤثر فيه، إلى درجة أن معنى الجزء ينعدم في ظل غياب معنى الكل، وذلك ما عناه الشاطبي بقوله: " فلا محيص للمتفهم عن رد آخر الكلام على أوله، وأوله على آخره، وإذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المتكلف، فإن فرق النظر في أجزائه، فلا يتوصل به إلى مراده، فلا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض".[2]

ولهذا أصبح مبدأ مراعاة السياق شرطا أساسيا في فهم الخطاب وتعيين الدلالة.

والملاحظ في عمل المفسرين أن السياق لا يقتصر على الوظيفة التفسيرية، وإنما يتعداها إلى الوظيفة الترجيحية، يقول الغزالي: "وإن تطرق إليه الاحتمال، فلا يعرف المراد منه إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ"،[3] وما القرائن المعينة على رفع الاحتمال إلا مكونات سياقية تنتظم اللفظ الذي تتردد دلالته بين احتمالات عدة.

وقد أكدت الدراسات القرآنية على جعل وظيفة السياق الترجيحية إحدى قواعد الترجيح المعتبرة.

---

1 - قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، محمد حبنكة الميداني، دار القلم، ط2، دمشق، 1989، ص319.

2 - الموافقات ، الشاطبي، ج3، ص413-414.

3 - المستصفى ، الغزالي، ج1، ص400.

ولخص صاحب تفسير المنار قاعدة الترجيح بالسياق قائلا:

"إن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ، موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء به الكتاب جملة".[1]

وفي معرض حديثنا عن الترجيح، ينبغي الإشارة إلى ما يلي:

إذا كان الترجيح يعني في الاصطلاح الأصولي: " بيان قوة أحد الدليلين على الآخر"،[2] ولا يكون هذا إلا عند التعارض، أي "تقابل الحجتين المتساويتين على وجه توجب كل واحدة منهما ضد ما توجبه الأخرى"،[3] وذلك بغرض إعمال الدليل القوي الراجح وإهمال الدليل الضعيف المرجوح، كما بين الآمدي: " أما الترجيح، فعبارة عن اقتران أحد الدليلين الصالحين للدلالة على المطلوب، مع تعارضهما، بما يوجب العمل به وإهمال الآخر".[4]

وهذا الترجيح -المتداول بين الأصوليين- واقع بين نصوص متعارضة، أما الترجيح في خطاب المفسرين، لا يتعلق بنصين اثنين، أو أكثر، من نصوص القرآن أو السنة، وإنما يتصل بأقوال المفسرين في تفسيرهم للآية الواحدة. فالتعارض يتصور بين تلك الأقوال، والدعوة إلى ترجيح بعضها على بعض إنما ينحصر في تلك الأقوال.[5]

أي أنه إذا كان الأصوليون يتحدثون عن التعارض والترجيح بين نصوص القرآن والسنة فإن المفسرين يتحدثون عن التعارض والترجيح في فهم المفسرين لتلك النصوص.

وإذا كان الأصوليين يعدون أربعة أسباب جوهرية لوقوع الترجيح بين النصوص، تعود إلى سند النصوص المتعارضة، أو متنها، أو مدلولها، أو تعود إلى دليل خارج النص(سواء كان كتابا أم

1 - تفسير المنار، رشيد رضا، ج1، ص22.

2 - شرح اللمع، أبو إسحاق الشيرازي، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1983، ص449.

3 - أصول السرخسي، تح: الأفغاني أبو الوفاء، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص12.

4 - الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين الآمدي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1983 ج4، ص320.

5 - دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية، محمد إقبال عروي، إدارة الثقافة الإسلامية، ط1، الكويت، 2007، ص37.

سنة أم قياسا أم إجماعا)،[1] فإن منهج الترجيح لدى المفسرين، له سبب جوهري هو سياق الآية والقرائن الحافة بنظمها، وقد يتدعم هذا السبب ويتقوى بنصوص قرآنية وحديثية خارج السياق النصي، وقد يضاف إليه السياق المقاصدي للخطاب والشريعة في مجالات العقيدة والتربية والعمران.

وهذا يجعل مفهوم السياق يتسع ليصير ذا أربعة شعب:[2]

- شعبة السياق النصي القريب.
- شعبة السياق المقامي، وهو الداخل في مفهوم أسباب النزول باعتبارها الوعاء الزمني والحالي الذي تنزلت فيه الآية موضوع التفسير نقدا وتوجيها، أو إقرارا وتمكينا، أو إصلاحا وتعديلا.
- شعبة السياق الكلي للخطاب، ويتمثل في استحضار الوحدة النظمية والدلالية للخطاب القرآني.
- شعبة السياق المقاصدي للخطاب القرآني، وهو الدائرة الكبرى التي تستوعب الدائرتين السالفتين، وتتعداهما إلى مقاصد القرآن في العقيدة والشريعة والتربية والعمران، إذ إن ترجيح دلالة معينة وإعمالها ملزم بأن يساوق الدلالات المقاصدية للخطاب، أما إذا عارضها أو ناقضها، فهو دليل مرجوحيته وإهماله.

2- دلالة السياق ومنزلتها بين القرائن:

أبرز المفسرون والعلماء أهمية السياق في فهم دلالة النص، وترجيح التأويلات، يقول ابن القيم:

1 - الإحكام في أصول الأحكام، سيف الدين الآمدي ، ج4، ص320.

2 - دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية، محمد إقبال عروي، ص37.

"السياق يرشد إلى تبيين المجمل وتعيين المحتمل، والقطع بعدم الاحتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم".[1]

وقد نوّه الزركشي بوجوب مراعاة السياق في التفسير بقوله: " ليكن محط نظر المفسر مراعاة نظم الكلام الذي سيق له، وإن خالف أصل الوضع اللغوي لثبوت التجوز".[2] لهذا كانت من قواعد الترجيح المعتبرة في التفسير قاعدة: " :كل تفسير ليس مأخوذاً من دلالة ألفاظ الآية وسياقها فهو رد على قائله".[3]

ولعل مفهوم السياق هنا متجه نحو السياق المقالي غير أن الأمر سيان مع السياق غير اللغوي، مادام أن قرائن السياق تشمل القرائن اللفظية و غير اللفظية وهذا ما يتقرر بقاعدة الترجيح التالية: "القول الذي تؤيده قرائن السياق مرجح على ما خالفه".[4]

وعلى هذا فإن السياق يأتي في مرتبة متقدمة من حيث الاعتبار في معنى الآية، ويكون القول الذي يتوافق مع سياق الآية هو القول الصحيح المعتمد.

غير أن إيراد المفسرين للسياق ضمن قواعد التفسير، بعد التفسير بالقرآن والتفسير بالحديث والإجماع، موهم بأنه يحتل الرتبة الثالثة أو الرابعة في سلمية الحجية والقوة والاعتبار، وهذا غير مسلم به، فالسياق يلتقي مع تلك القواعد في قوته التوجيهية، ومن المستحيل أن يجد المفسر سياق الآية يعارض آية أو حديثا.[5]

1 - بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، ج4، ص9-10.
2 - البرهان في علوم القرآن، الزركشي، ص100.
3 - قواعد الترجيح عند المفسرين، حسين بن علي، ج2، ص394.
4 - المصدر نفسه، ج2، ص317.
5 - دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية، محمد إقبال عروي، ص29.

لكن تبقى دلالة السياق دلالة ظنية لا قطعية، مادام أن معرفة السياق مبنية على الاجتهاد وغلبة الظن، وعليه فيكون تحديد السياق أمراً ظنياً لا قطعياً، ولهذا تجد الاختلاف في تحديد السياق في الآية الواحدة.

الفصل الثاني

العناصر غير اللغوية

وأثرها في توجيه المعنى في تفسير "ابن عطية"

تمهيد: التعريف بتفسير "ابن عطية" و "علم التفسير"

المبحث الأول: العناصر غير اللغوية المصاحبة لنزول القرآن

وأثرها في توجيه المعنى في "المحرر الوجيز"

المبحث الثاني: العناصر غير اللغوية الملابسة للنص القرآني

وأثرها في توجيه المعنى في "المحرر الوجيز"

تمهيد:

التعريف بتفسير "ابن عطية"

و"علم التفسير"

1- التعريف بتفسير "ابن عطية"

أ- تعريفه:

يعدّ تفسير المحرر الوجيز من: "أحسن التآليف وأعدلها"،[1] لأنّ صاحبه: "هو أجلّ من صنف في علم التفسير وأفضل من تعرّض للتنقيح فيه والتحرير".[2]

وحيث أنّ ابن عطية قد اطّلع "على تآليف من كان قبله فهذّبها ولخّصها"،[3] وسلك فيه منهجا يعدّ: "أصحّ نقلاً وبحثًا وأبعد عن البدع -وإن اشتمل على بعضها-"[4] مقارنة بمناهج المفسّرين السابقين له، لذا فقد جاء تفسيره: " كتابا ضخما أربى فيه على كلّ متقدّم"،[5] و" أحسن فيه و أبدع وطار بحسن نيّته كلّ مطار ".[6]

1- التسهيل لعلوم التنزيل، التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الفكر، ج1، ص10.

2 - البحر المحيط، أبو حيان، دار إحياء التراث العربي، ط2، بيروت-لبنان، 1990.ج1، ص 112.

3 - المصدر السابق، ج1، ص10.

4 - مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج2، ص194.

5 - بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، أحمد بن يحي الضبي، تح: روصية السويفي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1417هـ، ص339.

6 - الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون، تح: مأمون الحبان، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ. ، ص276.

وتظهر قيمة الكتاب من خلال ثناء العلماء عليه، فقد قال ابن تيمية عنه: "وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري ... "،[1] كما أثنى عليه السيوطي بقوله: "وهو أصدق شاهد له بإمامته في العربية وغيرها ".[2]

وبحق فإنّ الناظر في تفسير "المحرر الوجيز" ليعلم أنّه من أحسن التفاسير وأبدعها، وليدرك بأنّه شاهد صدق على إمامة "ابن عطية" في التفسير وعلوم العربية.

ب– مؤلفه:

هو عبدالحق بن غالب بن عبدالرحمن بن غالب بن تمام بن عبدالرؤوف بن عبدالله بن تمام بن عطية بن مالك بن عطية بن خالد بن خفاف بن غالب بن عطية الغرناطي المحاربي، أبو محمد.[3]

ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة (481 هـــ).

ولقد تضافرت عدّة عوامل لتكوين شخصيته العلمية، حتّ بلغ مرتبة الإمامة في العلم وهي:

- ***البيئة الثقافية***: فقد عاش في عصر كان فيه حال أهل الأندلس في فنون العلوم، كما وصفه التلمساني :"وكلّ العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلاّ الفلسفة والتنجيم ... وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللفقه رونق ووجاهة ... والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة."[4]
- ***الأسرة العلمية***: قال النباهي: "وبيته بيت علم، وفضل، وكرم ونبل".[5] وكان أبوه "فقيه زاهد محدث عالم"،[6] وممّا نقل عنه –من شدّة حرصه ومتابعته الشخصية لولده–

1 – مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ج13، ص361.
2 – بغية الوعاة، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1399هـــ. ، ج2، ص73.
3 – المصدر نفسه، ج2 ، ص74.
4 – نفح الطيب من عصر الأندلس الطيب، أحمد بن محمد التلمساني، تح: يوسف البقاعي، دار الفكر، ط1، بيروت، 1419هـــ.، ص181.
5 – تأريخ قضاة الأندلس، الحسن النباهي الأندلسي، دار الأفاق الجديدة، 1400هـــ. ، ص109.
6 – بغية الملتمس، أحمد الضبي، ص386.

أنّه " ربّما أيقظ ابنه أبا محمد عبدالحق في الليلة مرّتين يقول له : قم يا بني اكتب كذا ....كذا من تفسيرك"،[1] وهكذا ساهمت أسرته في حسن تربيته و نشأته الطيبة على حب العلم والولع به.

- ***العلماء الأفذاذ***: أخذ العلم عن والده الحافظ الناقد المجود وأجازه بجميع مروياته عن شيوخه، كما أخذ العلم عن كبار علماء عصره، وسمع منهم وأجازوه بمروياتهم في فنون شتى من العلم وخاصة علوم العربية.
- ***المؤهلات الشخصية***: حيث كان ابن عطية "غاية في توقد الذهن وحسن الفهم وجلالة التصرف".[2]
- ***الكتب النافعة***: لا ريب أنّه انتفع من كتب معاصريه ومؤلفات شيوخه لأنّه كان: "سري الهمة في اقتناء الكتب".[3]

وعن مكانته العلمية فقد وصفه ابن فرحون بقوله:" كان فقيهًا عالمًا بالتفسير ، والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب ..."،[4] ومدح حاله ابن الزبير قائلا: "كان ضابطا سنيا فاضلا من بيت علم وجلالة".[5]

وكفى بشاهدة الذهبي دليلا على مكانته وفضله بين العلماء ، عند ترجمته له في سير أعلم النبلاء: " الإمام العلامة شيخ المفسرين .....وكان إمامًا في الفقه وفي التفسير وفي العربية قوي المشاركة ، ذكيًا فطنًا مدركًا من أوعية العلم ".[6]

وأمّا آثاره فلم يصل لنا منها سوى "المحرر الوجيز" وكفى به من أثر، ولو لم يؤلف غيره.

1 – بغية الملتمس، أحمد الضبي، ص386.
2 – بغية الوعاة، السيوطي، ج2، ص73.
3 – الديباج، ابن فرحون، ص276.
4 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
5 – المصدر السابق، ج2، ص73.
6 – سير أعلام النبلاء، الذهبي، تح: بشار عواد ومحي الدين هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط1، 1405هـ، ج19، ص587-588.

ولقد وافته المنية بإحدى مدن الأندلس، في ليلة خامس عشر رمضان سنة (٥٤١ هـــ).[1]

2- التعريف بعلم التفسير

أ- تعريفه ونشأته:

التفسير تعني المبالغة من الفسر.

وهو علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك، كمعرفة النسخ، وسبب النزول، وقصة توضح ما أبهم في القرآن، ونحو ذلك.[2]

ومنهج البحث عند المفسرين –كما هو واضح من خلال التعريف- ينبني على دراسة بنية النص بمختلف مستوياته، مع مراعاة الظروف الملابسة له التي يشملها سياق الحال.[3]

أ- نشأته:

نزل القرآن منجّما في أزمان متفرقة وأماكن متباينة مرتبطا بأحداث مختلفة ومناسبات شتى على النبي محمد ﷺ بلسان عربي مبين.

وبالتالي فالذين شهدوا التنزيل -من الصحابة- في عصر النبوة لم يحتاجوا إلى تفسير لأن القرآن نزل بلسانهم، ولأنهم قد عايشوا الظروف التي هبط فيها الوحي وعلموا ملابسات التنزيل المختلفة، فكانت لهم تلكم الظروف والملابسات دلائل وقرائن على فهم معاني النصوص القرآنية ولذلك عد الصحابة أسد الناس فهما لكتبا الله.

---

1 - بغية الوعاة، السيوطي، ج3، ص73.

2 - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، عبد العظيم الزرقاني، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1988، ج2، ص 4.

3 - ينظر: السياق في كتب التفسير الكشاف وتفسير ابن كثير نموذجا، محمد المهدي حمامي الرفاعي، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية، جامعة حلب، ص18.

وقد نشأت الحاجة إلى التفسير لسببين ، أحدهما يتعلق بالمقام والآخر بالمقال:[1]

الأول– معرفة سياق الحال: ولما غابت هذه الظروف والملابسات عن التابعين ومن بعدهم من الناس، احتاج هؤلاء إلى معرفتها ليتيسر لهم فهم المعاني الآيات وحدود الأوامر والنواهي وبذلك شرعوا في البحث والأخذ عن الصحابة أسباب نزول الآيات وزمانه ومكانه، وما يحيط به من أخبار وأحداث، ونحو ذلك...

الثاني: دخول الأعاجم في الإسلام منذ عصر الصحابة، وسريان الضعف في الملكة اللغوية لدى العرب أنفسهم، الأمر الذي خلق الحاجة إلى الشرح اللغوي للقرآن.

أضف إلى ذلك طبيعة النص القرآني المعجز، ولهذا تم الاحتياج إلى معرفة حدود الدلالة من اطلاق وتقييد وعموم وخصوص، والوقوف على بيان المتشابهات وتفصيل المجملات وشرح المبهمات.

2– اتجاهاته:

للتفسير اتجاهان رئيسيان:[2]

الأول: تفسير بالرواية: ويسمى التفسير بالمأثور، وهو ما جاء في القرآن والسنة أو كلام الصاحبة بيان لمراد الله تعالى من كتابه.

الثاني: تفسير بالدراية: ويسمى التفسير بالرأي، وهو الاجتهاد في طلب معنى كلام الله بالرجوع إلى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب.

1 – ينظر: السياق في كتب التفسير الكشاف وتفسير ابن كثير نموذجا، محمد المهدي حمامي الرفاعي، ص19.

2 – ينظر: المصدر نفسه، ص20.

ويشترط لقبول التفسير بالرأي أن يلم المفسر بالتفسير بالمنقول، وأن يكون متمكنا من العربية وعلومها، عارفا بأساليب الكلام العربي، مراعيا المقصود من سياق الكلام، وألا يكون له فيما ذهب إليه ميل أو هوى.

وكذلك لابد للمفسر من الاستعانة بعناصر سياق الحال التي يقدمها المأثور والنقل عمن عاصر التنزيل، مادام يروم الكشف عن الدقيق والصحيح لكلام الله تعالى.

ولعله من الواضح أنه لا يوجد تفسير معتبر لأهل العلم اقتصر على جانب واحد فقط، وإنما يوصف التفسير بما غلب عليه اتجاه المفسر، وقد عد العلماء أحسن التفاسير بالمأثور هو تفسير ابن كثير.

و يتفاوت المفسرون فيما بينهم في مدى استعمالهم للنقل أو الرأي، تبعا لمذهب المفسر وعقيدته، أو لتوجه مقصود يتبناه المفسر مما يدفعه للانشغال ببعض القضايا دون غيرها، كتركيز الزمخشري على البلاغة، والقرطبي على الفقه، وأبو حيان على النحو، والرازي على علم الكلام ونحو ذلك.

غير أن التفاسير جميعها تنبني على أساس مشترك هو الانطلاق من اللغة، والاستعانة بالمعارف المنقولة لاستيضاح المعاني المقصودة.

المبحث الأول:

العناصر غير اللغوية المصاحبة لنزول القرآن وأثرها في توجيه المعنى في "المحرر الوجيز"

1- المتكلم

أ- المعرفة بالمتكلم:

إنّ إنشاء النص (أو الكلام) يكون من المتكلم، ويخضع لمراده وغرضه، وعليه فإن فهم النص يتوقف على المعرفة بذات المتكلم وشخصيته.

وإذا كان المخاطب لا يعرف المتكلم "بحسب أحواله من قصده وإرادته، واعتقاده، وغير ذلك من الأمور الراجعة إليه حقيقة أو تقديرا"،[1] لا يستطيع أن يفهم المراد من الخطاب، ولا يتبين له المقصود من الكلام، وهذا ينطبق على أي متكلم، فما بالك إذا كان المتكلم هو الذات العليّة والخطاب هو كلام الله المعجز في بيانه والمحكم في نظمه وأسلوبه.

ومن ثم كانت المعرفة بالذات العليا أمرا ضروريا لمعرفة المراد من كلام الله.

ومادام أن الله في اعتقاد المفسر هو صاحب الأسماء الحسنى والصفات العليا الكامل في جميع أفعاله وأقواله الذي ليس كمثله شيء، وأن كلامه هو الهدي المنزل على رسوله ﷺ ، "كانت الاعتبارات السياقية التي لابد أن تؤخذ في البال عند فهم كلامه عقيدة وشريعة ذات خصوصية من

1 - سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1953، ص28.

حيث ما يجب فهم كلامه في ضوء ما يليق به من الكمال والجلال اللائقين به، ومن حيث حكمة المشرع ومقاصد الشرع فيما يصلح شأن الأنسان تعبدا ومعاملة."[1]

وقد جعل الراغب الأصفهاني الآفات المانعة المخاطَب من فهم مراد الخطاب: إما راجعة إلى الخطاب، أو المخاطَب أو المخاطِب، والراجعة إلى المخاطَب كضعف تصوره لما قصد الانباء عنه أو قصور عبارته عن تصوير ما قصد الإنباء عنه، أما خطاب الله عز وجل فهو منزه عنها.[2]

ولهذا كان النص القرآني منزه عن النقائص التي تعتري كلام البشر، فلا سبيل لوجود خلل في نظمه أو تناقض في معنيه بتاتا، ولا يمكن أن تصيبه آفة مانعة من فهم مراد الله.

وقد راعى المفسرون هذا الأمر في تفسيرهم، وقال ابن القيم في هذا الصدد: "فكذلك معانيه أجل المعاني وأعظمها وأفخمها، فلا يجوز تفسيره بغيرها من المعاني التي لا تليق به".[3]

وعدم مراعاة شأن المتكلم في السياق من أهم أسباب الخلاف في الاستدلال، وهذا ما وقع فيه الذين فسروا القرآن: " من غير نظر إلى المتكلم بالقرآن، والمنزل عليه، والمخاطَب به.. راعوا مجرد اللفظ.. من غير نظر إلى ما يصلح للمتكلم به وسياق الكلام."[4]

وفي قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾،[5] يقول ابن عطية في تفسير "وهو خادعهم" "أي منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سماها باسم الذنب، فعقوبتهم في الدنيا ذلهم وخوفهم وغم قلوبهم، وفي الآخرة عذاب جهنم."[6] ثم ذكر تفسير الخدع عند بعض المفسرين:

1 – ينظر: همميش رقم 1، دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، رسالة دكتوراه، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1442هـ، ، ص601.

2 – مقدمة التفسير، ص399.

3 – التفسير القيم، ابن القيم الجوزية، نقلا من كتاب أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986 ص133.

4 – مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، دار الصحابة للتراث، ط1، طنطا-مصر، 1988. ، ص73.

5 – النساء: 141

6 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص 127.

"إن هذا الخذع هو أن الله تعالى يعطي لهذه الأمة يوم القيامة نورا لكل إنسان مؤمن أو منافق فيفرح المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا، فإذا جاؤوا إلى الصراط طفئ نور كل منافق، ونهض المؤمنون بذلك، فذلك قول المنافقين "انظرونا نقتبس من نوركم" وذلك هو الخدع الذي يجري على المنافقين"[1]

فابن عطية يعدل عن تفسير الخداع بمعناه الأصلي، إلى معنى يليق بجلال الله وكماله، لأن الخداع لا يجوز في حق الله، فهو المتعالي عن كل نقص، والكامل في جميع أعماله وصفاته.

وعلى هذا المنوال فسر "إنا نسيناكم" في قوله تعالى: ﴿ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ،[2] حيث قال: "إنا نسيناكم" : سمى العقوبة باسم الذنب"،[3] وذكر ذلك أيضا في تفسيره "الله يستهزئ بهم" في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .[4]

ويظهر جليا التأويل بما يليق من المعاني بكمال الله في مثل تفسير الآيات التي يوهم ظاهرها التشبيه أو التجسيم، نحو ما ذكر في تفسير ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ ،[5] حيث قال: "العقيدة في هذا المعنى نفي التشبيه عن الله تعالى، وأنه ليس بجسم، ولا له جارحة، ولا يشبّه ولا يكيّف ولا يتحيّز في جهة كالجواهر، ولا تحلّه الحوادث، تعالى عمّا يقول المبطلون".[6]

ثم أشار إلى اختلاف العلماء فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالى: ﴿ بَلْ يَدَاهُ ﴾ من الآية: ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾.[7]

1 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص127.
2 – السجدة: 14
3 – المصدر السابق، ج4، ص361.
4 – البقرة: 15
5 – المائدة: 64.
6 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ص215.
7– المائدة: 64.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾،[1] و ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾،[2] و ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾،[3] و﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾،[4] و ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾،[5] ، و ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾،[6] و ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾،[7] ونحو هذا... " فذكر أن فريق من العلماء "يؤمن بهذه الأشياء وتقرأ كما نصها الله ولا يعن لتفسيرها ولا يشق يشقق النظر فيها"،[8] ورأى أن هذا القول فيه اضطراب بدعوى أن السكوت عن الأمر يوهم العوام ويتيه الجهلة، و لهذا أعقبه بقول الجمهور القائل: " بل تفسر هذه الأمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب. فقالوا في العين والأعين إنها عبارة عن العلم والإدراك، كما يقال فلان من فلان بمرأى ومسمع، إذا كان يعني بأموره وإن كان غائبا عنه، وقالوا في الوجه إنه عبارة عن الذات وصفاتها، وقالوا في اليد واليدين والأيدي إنها تأتي مرة بمعنى القدرة كما تقول العرب لا يد لي بكذا، ومرة بمعنى النعمة كما يقال لفلان عند فلان يد، وتكون بمعنى الملك كما يقال يد فلان على أرضه، وهذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عبر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين استعمالا لفصاحة العرب ولما في ذلك من الإيجاز ".[9] ثم بعد ما ذكر أن ابن عباس قال في هذه الآية، ﴿يَدَاهُ﴾ نعمتاه، قال ابن عطية: والظاهر أن قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ عبارة عن إنعامه على الجملة وعبر عنه بيدين جريا على طريقة العرب في قولهم فلان ينفق بكلتا يديه ومنه قول الشاعر وهو الأعشى:

يداك يدا مجد فكف مفيدة *** وكف إذا ما ضن بالمال تنفق".[10]

1 – ص: 75.
2 – يس: 71.
3 – الفتح: 10.
4 – طه: 39.
5 – القمر: 14.
6 – الطور: 48.
7 – القصص: 88.
8 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص213.
9 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
10 – المصدر السابق، ص216.

وهكذا نرى بأن ابن عطية بناء على معتقده في ذات الله كان تأويله على ما سبق ذكره ونحن هنا لسنا بصدد تبيين العقيدة الصحيحة في هذا ولا في الحكم عليها،- لأن هذا ليس من شأن البحث-، ولكن سقنا قول ابن عطية للتدليل على مدى أهمية أثر المعرفة بالمتكلم (الله عز وجل) في توجيه المعنى وبيان لمراد.

وعن بعض الآيات التي ربما أوهمت -لدى البعض- فهما لا يليق بكمال الله، إذا ما قصر النظر على ظاهر الآية، في مثل قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾،[1] فقد يفهم البعض من "لنعلم" أن العلم حاصل مستقبلا لذات الله، وهذا منتف في حق الله سبحانه، لكن ابن عطية قال في تأويلها: " "لنعلم" أي ليعلم رسولي والمؤمنون به، وجاء الإسناد بنون العظمة إذ هم حزبه وخالصته، وهذا شائع في كلام العرب كما تقول: فتح عمر العراق وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل ووجه آخر: وهو أن الله تعالى قد علم في الأزل من يتبع الرسول واستمر العلم حتى وقع حدوثهم واستمر في حين الاتباع والانقلاب ويستمر بعد ذلك، والله متصف في كل ذلك بأنه يعلم، فأراد بقوله: "لنعلم" ذكر علمه وقت مواقعتهم الطاعة والمعصية، إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب، فليس معنى "لنعلم" لنبتدئ العلم وإنما المعنى لنعلم ذلك موجودا".[2] ثم قرر ابن عطية: "والقاعدة نفي استقبال العلم بعد أن لم يكن".[3]

فمن خلال هذه القاعدة وذاك التوجيه يتضح لنا جليا أهمية اعتبار المعرفة بذات المتكلم في توجيه المعنى.

1 - البقرة: 147.

2 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص223.

3 - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

وخلاصة القول: أن المتكلم وهو أحد العناصر غير اللغوية (باعتباره عنصرا خارجا عن التشكيل النصي) له الأهمية القصوى في شرح النصوص وبيان المعنى المراد.

ب- قصد المتكلم:

إن المعنى المطلوب في شرح النص القرآني، والديني عامة، يجب ألا يكون إلا المعنى الذي أراده الله صاحب الكلام، أما أن يطلق القارئ العنان لخياله وذوقه وذاته في قراءة تكاد لا تقيم للكاتب ومقاصده اعتبارا، فذاك أمر وإن كان جائزا، بل ربما كان مطلوبا في شرح النص الأدبي فإنه محظور في تفسير القرآن.[1]

والمفسر يجتهد في معرفة مراد الله ويضع نصب عينيه أن: " الألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق عُمل بمقتضاه، سواء كانت بإشارة أو كتابة أو بإيماءة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية".[2]

وبناء على مراعاة المقصد يتم ترجيح بعض التفسيرات وترد أخرى، كما تمحص الأقوال المأثورة كالإسرائيليات وتغربل ليتساقط منها المكذوب و يتداعى الملفق فيها.

فمثلا لقد اختلف المفسرون في من المقصود بـــ "الذي أوتي الآيات: هل هو نبي أم رجل من بني إسرائيل؟ المذكور في الآية: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾.[3]

ذكر ابن عطية بأن ابن مسعود قال هو رجل من بني إسرائيل، بينما ابن عباس قال هو رجل من الكنعانيين الجبارين، ثم لما ذكر بأن مجاهد قال كان رشح للنبوة وأعطيها فرشاه قومه

1 - قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي جطلاوي، دار محمد علي الحامي، ط1، صفاقس-تونس، 1998، ص 117.

2 - إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تح: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973، ج1، ص 217.

3 - الأعراف: 175.

على أن يسكت ففعل،[1] عقب على ذلك منكرا: " وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أعطي النبوءة فقد أعطي العصمة ولا بد، ثبت هذا بالشرع..."[2]

فابن عطية رد رواية مجاهد سندا ومتنا اعتبارا لمقصد الشرع، وهو عين الصواب لأن من ذهب إلى أنه نبي من أنبياء الله استند إلى إسرائيليات تحكى، و"غفل عن الالتفات إلى حقيقة جوهرية، تمثل مقصدا من مقاصد القرآن، وهي أنه لا يجوز القول إنه نبي؛ لأن ذلك مدخل للطعن في حكمة الله وعلمه، إذ كيف يتسرب إلى وهم المرء أن إنسانا يصطفيه الله للنبوة وبالنبوة ثم يعرض عنها ويسلك منهجا مخالفا لها، إن هذا الفهم مدخل إلى تسرب عقائد فاسدة تمس الإيمان بحكمة الله وعلمه."[3]

وكذلك في قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ ،[4] قيل بأن يوسف جلس من المرأة مجلس المجامع، وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو هذا، رد ابن عطية هذه الأقوال بقوله: "وهذا ضعيف البتة"،[5] معللا ذلك بما يلي: "إن كون يوسف نبيا في وقت هذه النازلة لم يصح ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكما وعلما ويجوز عليه الهم الذي هو إرادة الشيء دون مواقعته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبيا في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهم الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حل تكة ونحو ذلك، لأن العصمة مع النبوة."[6]

1 – ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص476.
2 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
3 – المصدر نفسه، ص 476.
4 – يوسف: 24.
5 – المصدر السابق، ج3، ص232.
6 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

واستنكار ابن عطية في محله لأن المغزى من وراء قصة يوسف هو "ليقتدي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والتثبت في مواقف العثار، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدي إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربي المبين، ليقتدي بنبي من أنبياء الله، في القعود بين شعب الزانية، وفي حل تكته للوقوع عليها"[1]

ومن هذا كله ندرك الأثر البالغ للمقاصد في توجيه المعاني القرآنية.

ومن آثار مراعاة القصد اعتبار تعدد التفسيرات للفظ الواحد ما دام أنها لا تتعارض مع القصد، ففي الآية التالية مثلا: ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ ،[2] اختلف في معنى "تغيير خلق الله"، فقال ابن عباس وإبراهيم ومجاهد والحسن وقتادة وغيرهم: أراد: يغيرون دين الله، وذهبوا في ذلك إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ،[3] أي لدين الله والتبديل يقع موضعه التغيير، وإن كان التغيير أعم منه، وقالت فرقة: "تغيير خلق الله" هو أن الله تعالى خلق الشمس والنار والحجارة وغيرها من المخلوقات ليعتبر بها وينتفع بها، فغيرها الكفار بأن جعلوها آلهة معبودة، وقال ابن عباس أيضا وأنس وعكرمة وأبو صالح: من تغيير خلق الله الإخصاء، والآية إشارة إلى إخصاء البهائم وما شاكله، فهي عندهم أشياء ممنوعة، ... وقال ابن مسعود والحسن: هي إشارة إلى الوشم وما جرى مجراه من التصنع للحسن، فمن ذلك الحديث: "لعن رسول الله ﷺ الواشمات والموشومات والمتنمصات والمتفلجات المغيرات خلق الله". ومنه قوله ﷺ : "لعن الله الواصلة والمستوصلة"، فابن عطية سرد أقوال المفسرين على اختلافها و لم يرجح

1 - الكشاف، الزمخشري، ج 2، ص 457.

2 - النساء: 119.

3 - الروم: 30.

أحد منها إذ كلها محتملة مدام أن لها مقصد واحد. لهذا ختم ابن عطية كلامه بالتقرير التالي: "وملاك تفسير هذه الآية: أن كل تغيير ضار فهو في الآية، وكل تغيير نافع فهو مباح".

2- المخاطب:

أ- المخاطبون بالقرآن:

لقد نزل الوحي على محمد ﷺ لينذر عشيرته الأقربين وليبلغ رسالات ربه الى الناس أجمعين ويبين للناس ما نزل إليهم.

فهو المتلقي الأول لهذا النص، المتوجه إليه أساسا، والمكلف بتنفيذه وتبليغه، لذا كانت المعرفة بشخصية الرسول ﷺ، باعتباره مخاطَبا ومخاطِبا في آن معا، من الأمور اللازمة لفهم النص القرآني وتفسيره.

ومعرفة سيرته تكون من خلال الوقوف على صفاته وأخلاقه المذكورة في القرآن نفسه وبالرجوع إلى سنته القولية والعملية، الواردة في كتب الشمائل والسير والحديث، والتي كانت تفصيلا قوليا وتجسيدا عمليا لمضمون شرع الله، لأنه بحق "كان خلقه القرآن".

فالإحاطة بسيرته تعين على فهم جملة من الآيات الواردة في حق الرسول ﷺ، فمثلا لولا فقه سيرته مع أصحابه، ومعرفة طيب أخلاقه وكريم خصاله، ما فقهت معنى الآية التالية:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .[1]

1 - التوبة: 61.

إذ رد الله على المنافقين الذين كانوا يلمزون النبي بهذا النعت بأنه نعم الأذن مطابق لأخلاقه الفاضلة وسجاياه الجميلة، وليس بالأذن على ما تصفونه به تنقصا، أو على ما تعهدونه من بعضكم غفلة وسذاجة، حاشاه ﷺ، وهذا يتضح من خلال شمائله و سيرته.

ومدام أن الرسول ﷺ مكلف بتبليغ رسالة ربه إلى الناس أجمعين، فإن غالب خطاب الرسول ﷺ يتم تأويله على أنه خطاب لأمته، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ .[1]

حيث قال ابن عطية في تأويلها "والخطاب للنبي ﷺ، وغيره داخل في المعنى، وقيل: الخطاب للمرء على الجملة"،[2] أي كما قال الزمخشري: "ما أصابك يا إنسان خطابا عاما"،[3] ونلاحظ رغم عودة الضمير في "أرسلناك" على الرسول ﷺ تحديدا.

والخطاب القرآني كما يتوجه إلى الرسول ﷺ فهو يخاطب المرسل إليهم المعنيون بتكليف الخطاب الشرعي.

ولعل ما يميز النص القرآني هو اتساع دائرة المخاطبين، ثم تنوع أصنافهم، فهو يخاطب الفرد مرة، ويخاطب الجماعة مرة أخرى، وتارة يكون الخطاب خاصا لفئة معينة كالمؤمنين والكافرين، أو لطائفة معينة كأهل الكتاب مثلا، أو لجنس محدد نحو: "يا بني اسرائيل"، وتارة أخرى يكون الخطاب عاما للأمة بكاملها وللناس أجمعين.

لهذا ينبغي الوقوف على أحوال المخاطبين بالقرآن لإدراك مضامين الخطاب وفهم مراد الله.

1 - النساء : 79.

2 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص81.

3 - الكشاف، الزمخشري، ج1، ص100.

ب- أحوال المخاطبين:

المخاطب هو الهدف في أي عملية اتصال وتتعلق به الوظيفة الإفهامية، لهذا ينبغي على المتكلم أن يكيف الكلام (النص) وفق حال المخاطب نفسيا واجتماعيا وثقافيا.

ورسول الله ﷺ هو المخاطب الأول بالوحي، ولما علمنا من حاله أنه نبي معصوم، وأن مقامه في عليين، تم اعتبار ذلك في تفسير الآيات وتوجيه المعاني.

فمثلا جميع الآيات التي جاء فيها النهي للنبي ﷺ يأوّل النهي على معنى يليق بالنبي ﷺ، أوأن المقصود بالنهي أمته لا هو. وكذلك ما كان فيه عتابا، يوجه المعنى بما لا يقدح في عصمة الرسول ﷺ وبما لا ينقص من شأنه:

مثل تأويل "وما أنت بتابع قبلتهم" في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ ،[1] ففي معنى "ولئن اتبعت" قال ابن عطية: "وقوله تعالى: "ولئن اتبعت" الآية، خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظلما متوقعا فهو محمول على إرادة أمته لعصمة النبي وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطب النبي ﷺ تعظيما للأمر".[2]

كما ذكر ذلك عند قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ ، [3] "فلا تكونن من الممترين"، الخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته".[4]

1 - البقرة: 145.

2 - المحرر الوجيز، المحرر الوجيز، ج1، ص221.

3 - البقرة: 174.

4 - المصدر السابق، ج1، ص.239.

وإذا كان العرب قوم الرسول ﷺ، هم المعنيون بالخطاب أولا من بين أمته، والنازل عليهم مباشرة، وجب علينا الاحاطة بأخبارهم ومعرفة أحوالهم، حتى يتسنى لنا فهم الآيات النازلة بشأنهم، ويتضح لنا مقصود الخطاب الموجه إليهم، ومن ثم ندرك مراد الله الموجه للناس أجمعين، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما قرر الأصوليون.

وأول ما يتعين المعرفة به هو لسانهم، لأن القرآن نزل: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [1]، للتمكن من فهم معاني النص القرآني أولا، وإدراك معاني الإعجاز ثانيا –لأنه أحد مقاصد القرآن–.[2]

وسنقف لاحقا –في هذا البحث– عند سنن العرب في كلامها التي ينبغي الاحتكام لها في توجيه المعاني، ونعرض لها بشيء من التفصيل.

وقوم الرسول ﷺ منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ويتعين على المفسر الوقوف على سيرة المؤمنين صحابة رسول الله ﷺ.

فمثلا من الآية: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ ،[3] سنفهم كيف من الله عليهم بالأمن لما نعرف حال المؤمنين حين نزولها و كيف كانوا في خوف شديد بسبب ما عانوه من المشركين يومئذ.

كما أن الناظر في أمر المشركين و أحوالهم يفهم جملة من الآيات التي تحدثت عن وجوب قتالهم، ويدرك مدى معاناة الرسول وأصحابه معهم، ويعلم علم اليقين مرتبة أصحابه والدرجة التي بلغوا لها في التصديق بالإيمان والثبات على الحق.

1 – الشعراء: 195.

2 – ينظر: السياق في كتب التفسير، محمد المهدي حمامي رفاعي، ص224.

3 – النور: 55.

ومن بين الذين نزل فيهم خطاب الله المنافقون، كما في سورة النور التي تعرضت لهم وبينت خبث طويتهم وكشفت سوء أعمالهم كحادثة الافك ونحوها، وسورة المنافقون التي تحدثت عنهم، فلزم معرفة أحوالهم ومكائدهم وكيف كانت سيرتهم مع الرسول ﷺ وكيف كان يعاملهم لتقف على فهم صحيح وإدراك صائب لما لحقهم من خزي في الدنيا وسوء العاقبة في الآخرة بسبب نفاقهم.

ومن المخاطبون بالقرآن نجد أهل الكتاب، اليهود والنصارى، الذي دعاهم لدين محمد ﷺ وأقام عليهم الحجج لاتباعه ولبيان صدق دعوته.

لقد عاش اليهود في يثرب وما جاورها وكانوا ينتظرون خروج النبي ﷺ، لأنه كان عندهم علم من الكتاب وليسوا بالأمين، وما إن ظهر الرسول ﷺ في العرب وجاء منهم، انقلب اليهود على أعقابهم وكفروا به، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾،[1] فـــ "يستفتحون" معناه أن بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي ﷺ قد علموا خروجه بما عندهم من صفته وذكر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج فغلبتهم العرب قالوا لهم: لو قد خرج النبي ﷺ الذي أظل وقته لقاتلناكم معه واستنصرنا عليكم به ...وروي أن قريظة والنضير وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي ﷺ المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا صقع المبعث، وما عرفوا أنه محمد ﷺ وشرعه، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم، وأن كفرهم كان مع معرفة ومعاندة"[2]

لقد عزز ابن عطية تأويله بمعطيات خارجية أفاد منها في توجيه المعنى المراد.

1 - البقرة: 89.

2 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص178.

وهكذا فإن تفسير المعاني المتعلقة بأهل الكتاب له علاقة بمعرفة تاريخهم مع أنبيائهم والعهود المأخوذة عليهم وما كانوا فيه من النعم وما تعرضوا له من العذاب، وما صاروا إليه من الشتات والتفرق بسبب تنكرهم وعنادهم.

3- زمان الكلام ومكانه:

العلم بزمان النزول ومكانه يتعلق بسياق الحال، وينبني عليه فهم معنى النص وإدراك مضامينه. لذا اهتم المفسرون ببحث عنصري الزمان والمكان فيما عرف بـــ"علم المكي والمدني" لما لهذين العنصرين من أهمية قصوى في توضيح المبهمات ورفع الاشكالات التي قد تتطرق للنص.

ويشمل بحث المكي والمدني عند علماء القرآن جميع ما يتعلق بأحوال النزول نحو ما نزل في الحضر أو السفر، وما نزل في الليل و ما نزل في النهار، وما نزل في الصيف وما نزل في الشتاء وتحديد الأمكنة كمة والمدينة والطائف والحديبة وغير ذلك...[1] وهذا الاستقصاء إنما يدل على مدى وعي هؤلاء العلماء لأهمية عناصر سياق الحال و إدراك دورها في فهم مضامين النص الشرعي.

والمكي والمدني من شدة تعلقها بسياق الحال، كان لكل منهما خصائص معتبرة في الفهم والتأويل، "فالمدني من السور ينبغي أن يكون منزلا في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل وإلا لم يصح"،[2] لهذا دأب المفسرون في بداية تفسير كل سورة غالبا أو في ثناياه، على بيان السورة وآياتها أهي من المكي أم المدني، لما ينطوي على ذلك من فهم وما ينبني عليه من أحكام.

1 - ينظر: الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ص130.

2 - الموافقات، الشاطبي، ج3، ص406.

ويظهر اعتبار المكي والمدني في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.[1]

بعد ما ساق رأي من فسر الحق هنا بالزكاة، قال وهذا قول معترض بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة"، أي ما دام أنه معلوم أن الزكاة قد فرضت في المدينة و هذه الآية مكية فلا يصح على هذا تفسير الحق الوارد في الآية بالزكاة المفروضة، معنى الآية إذا فقد بنى اعتراضه على أساس اعتبار الزمان والمكان.

ومن آثار المعرفة بالمكي والمدني الوقوف على النسخ في آيات الله وتحديد الناسخ من المنسوخ، وهذا أمر في غاية الأهمية لأن "من لم يعرف الناسخ من المنسوخ خلط في الدين"[2]

ومن ثم يمكن القول بأن الزمان والمكان لهما أثر بالغ في تعيين المعنى وتحديده.

4- الأحداث المصاحبة:

وهي ما يعرف عند المفسرين بأسباب النزول، و هي أول ما يجب الوقوف عليها، لامتناع معرفة تفسير الآيات، دون الوقوف على أسباب نزولها.

لهذا يتوقف على معرفتها فهم الآيات وينبني عليها جملة من أحكام ، فمثلاً قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ،[3] لم يفهم منه التقاعد والتقاعس عن واجب الجهاد، وعدم اقتحام ميادين القتال، فهذا فهم غير مراد من الآية، إذ ليس التهلكة أن يقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله هي التهلكة.

1 - الأنعام: 141.

2 - الناسخ والمنسوخ، ابن حزم، ص5.

3 - البقرة: 195.

وتوجيه هذا الخطاب القرآني على المعنى المذكور إنما تم على ضوء سبب النزول الذي نزلت الآية بسببه.

يوضح هذا المعنى، ما رواه الطبري عن المغيرة رضي الله عنه، قال: بعث عمر رضي الله عنه جيشاً، فحاصروا أهل حصن، وتقدم رجل فقاتل فقُتل، فأكثر الناس الكلام فيه، يقولون: ألقى بيده إلى التهلكة! قال: فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه، فقال: كذبوا! أليس الله عز وجل يقول: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ .[1]

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾،[2] لا ينبغي أن يفهم من هذه الآية كراهة الأزواج الأولاد والبعد عنهم، وإنما ينبغي أن تفهم على ضوء سبب النـــزول الذي وردت فيه وهو أن أناساً من قبائل العرب كان يسلم الرجل أو النفر من الحي، فيخرجون من عشائرهم ويدعون أزواجهم وأولادهم وآباءهم عامدين إلى النبي ﷺ، فتقوم عشائرهم وأزواجهم وأولادهم وآباؤهم، فيناشدونهم الله أن لا يفارقوهم، ولا يؤثروا عليهم غيرهم، فمنهم من يرق ويرجع إليهم، ومنهم من يمضي حتى يلحق بنبي الله ﷺ. فنـــزلت الآية لتخبر أن الأزواج والأولاد بقدر ما هم نعمة من الله يمنُّ بها على الإنسان، فهم في الوقت نفسه امتحان واختبار له؛ ليُعلم أيضحي بدينه لأجلهم، أم يضحي بهم لأجل دينهم في حال استدعى الأمر منه التضحية .

قال تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ،[3]

1 - البقرة: 207.

2 - التغابن: 14.

3 - المائدة: 93.

لما جاءت هذه الآية عقب ذكر الخمر وتحريمها، صار ظاهر الآية يشعر برفع الحرج عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيما شاؤوا أن يأكلوا أو يشربوا ولو كان خمرا، وهذا فهم غالط للآية مرده عدم الوقوف على سبب النزول، إذ سبب نزول الآية فيما قال ابن عباس والبراء بن عازب وأنس بن مالك: أنه لما نزل تحريم الخمر، قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر ونحو هذا من القول فنزلت هذه الآية.

وقد تأول هذه الآية قدامة بن مظعون الجمحي عند مثوله أمام عمر بن الخطاب، لما شهدوا عليه أنه شرب الخمر، فقال عمر لقدامة إني حادك، فقال: لو شربت كما يقولون لم يكن لك أن تحدني، قال عمر لما، قال: لأن الله تعالى يقول: "ليس " الآية، فقال له عمر أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم عليك، ثم حده عمر.[1]

فمعنى الآية لا يعني رفع الحرج عن الذين آمنوا في كل ما طعموا، وإنما المعنى حسب سبب النزول لا حرج على المؤمنين الذين شربوا الخمر قبل تحريمها وماتوا على ذلك.

إن صرف المعنى عن ظاهره يحتاج إلى ما يعضده من قرينة صارفة أو دليل مؤيد، والدليل هنا الذي اتكأ عليه المفسر في تأويله هو النظر إلى سبب النزول. وإنما جاز العدول عن الدلالة الظاهرة إلى الدلالة المؤولة لقوة الدليل التي يحملها سياق الحال في توجيه المعنى.

[1] – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص 224.

المبحث الثاني:

العناصر غير اللغوية الملابسة للنص القرآني
وأثرها في توجيه المعنى في "المحرر الوجيز"

1- الحديث النبوي:

قال تعالى في حق محمد ﷺ : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾،[1] وقد بين النبي ﷺ ألفاظ القرآن كما بين لهم معانيه، لهذا استعان المفسرون بالحديث الشريف والسنة النبوية في توجيه المعنى.

والسنة تدرج ضمن السياق الخارجي لا اللغوي، لأنها ليست من التشكيل اللغوي للقرآن الكريم، ولأن جزءا منها يتمثل بأفعال الرسول الكريم ﷺ.[2]

وكما اعتمد ابن عطية على أقوال الرسول ﷺ فقد اعتمد على أفعال الرسول ﷺ أيضا: ومثال ذلك عند تأويل قوله تعالى: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾،[3] اختلف المفسرون في تحديد المخاطب في الآية الكريمة، فقد ذكر الطبري أن المخاطبين من قوم صالح وهم أحياء، لأن الآية تتحدث عن حال خروج صالح عليه السلام من بين قومه الذين عتوا على ربهم حين أراد الله إحلال عقوبته بهم، فتوجه إليهم صالح يخاطبهم بأنه أبلغهم رسالة ربه، وأدّى إليهم ما أمره الله بأدائه إليهم، ونصح لهم، ولكنهم لا يحبون الناصحين لهم في الله.[4]

---

1 - النحل: 44.

2 - أثر السياق الخارجي في توجيه الدلالة التركيبية لدى مفسري القرآن الكريم، محمود حسن الجاسم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 12، فبراير 2014، ص17.

3 - الأعراف: 78.

4 - جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ابن جرير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، لبنان، 2000، ج12، ص546-

بينما رأى الزمخشري وأبو حيان وابن كثير أن الخطاب موجه إلى الأموات[1]، ويعلل الزمخشري هذا الرأي بأن الرجل قد يخاطب صاحبه بمثل هذا القول، وهو ميت، وكان قد نصحه حيًّا، فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة، كأن يقول له مثلًا :يا أخي، كم نصحتك وكم قلت لك فلم تقبل منّي؟ أما قوله تعالى:

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾،[2] فهو من باب حكاية الحال الماضية.

أما ابن عطية فقد أجاز الرأيين السابقين، إذ يذهب إلى أن الخطاب لقوم صالح، ويجوز أن يكون قد خاطبهم وهم أحياء وقت عقرهم الناقة، كما يجوز أن يكون قد خاطبهم وهم أموات، ثم يضيف مستعينًا بالحديث النبوي الشريف المتمثل بخطاب الرسول الكريم ﷺ لقتلى الكفار في معركة بدر، فيذكر أن لفظ الآية يحتمل أنه خاطبهم، وهم موتى تفجعًا عليهم، كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر.[3]

وعمل الرسول ﷺ المشار إليه هو مخاطبته لقتلى بدر-الذي استغربه أصحابه- ، فقيل : تتكلم مع هؤلاء الجيف؟ فقال" :ما أنتم بأسمعَ منهم، لكنهم لا يقدرون على الجواب".

وهكذا نجد أن ابن عطية قد استند إلى السياق الخارجي المتمثل بفعل الرسول ﷺ في بعض ما ذهب إليه.

أما في الآية: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾،[4] قال ابن عطية :" وسبب هذه الآية أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه

.547

1 - ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج2، ص118، والبحر المحيط، أبو حيان، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1993، ج4، ص335، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1999، ج3، ص444.

2 - الأعراف: 79.

3 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، 491.

4 - البقرة: 48.

وسيشفع لنا أبنائنا، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه شفاعة ولا تجزي نفس عن نفس"، ومدام ظاهر الآية لا يستثني من ذلك أحدا عقب ابن عطية بقوله: "وهذا إنما هو في الكافرين، للإجماع وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين".[1] وهكذا نرى بأن ابن عطية قد قصر مفهوم الآية على الكافرين اعتمادا على الإجماع والحديث المتواتر الوارد في أمر الشفاعة في المؤمنين.

إذن فجملة ما استند إليه في تأويل ظاهر لآية، هو السياق الخارجي المتمثل في الحديث النبوي الوارد في أمر الشفاعة.

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾، [2] في تفسير معنى "والذين يؤتون ما آتوا" ذكر قراءة أخرى على خلاف قراءة الجمهور "يأتون ما أتوا" وقال:" ومعناه يفعلون ما فعلوا، ورويت هذه القراءة على النبي وذهبت فرقة إلى أن معناه من المعاصي، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها وهذا أمدح، ونلاحظ هنا تعقيبه على ما ذهبت إليه الفرقة الثانية بقوله: وهذا أمدح ، ثم استطرد قائلا: "وأسند الطبري عن عائشة أنها قالت يا رسول الله قوله تعالى "يؤتون ما آتو" هي في الذي يزني ويسرق قال: "لا يا بنت أبي بكر بل هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبه وجل يخاف أن لا يتقبل منه"، ثم قال : ولا نظر مع الحديث"[3] وهنا نجد ابن عطية وقافا عند الحديث إذا كان واضح الدلالة في تفسير معنى الآية، فهو لم يتأول شيئا بعد سوق الحديث لأنه عنده حجة كافية ولازمة في آن واحد.

والتفسير استنادا للحديث إذا ما ثبت فيما لا مجال للرأي فيه فلا شك أنه حجة.

1 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص138.

2 – المؤمنون: 60.

3 – المصدر السابق، ج4، ص147.

مثلما ورد في تفسير: ﴿ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذِۭ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ ،[1] قال ابن عطية: " روي في قوله تعالى: "وجيء يومئذ بجهنم" أنها تساق إلى الحشر بسبعين ألف زمام، يمسك كل زمام سبعون ألف ملك فيخرج منها عنق فينتقي الجبابرة من الكفار في حديث طويل مختلف الألفاظ..." وهذا ما ذكره ابن كثير أيضا في تفسيره قوله تعالى: "وجيء يومئذ بجهنم"، فقال معناها كما قال النبي: "يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها". (أخرجه الإمام مسلم في صحيحه).

ولا شك أن الحديث ظاهر الدلالة على الآية، وهذا تفسير نبوي، وهو تفسير للقرآن بالسنة، وهو حجة، لأنه صادر من المعصوم عليه الصلاة والسلام.

ومن التفسير النبوي للقرآن الكريم يظهر ما ورد في حديث عقبة بن عامر الجهني أنه قال:

" خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأ قوله تعالى :

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[2]

ثم قال النبي ﷺ :

(ألا إنّ القوة الرمي ، ألا إنّ القوة الرمي ، ألا إنّ القوة الرمي)

فالنبي ﷺ فسر " القوة " في الآية بالرمي .

غير أن ابن عطية رأى أن الصواب هو اعتبار عموم اللفظة -كما ذهب في ذلك الطبري- ومعنى ذلك أن القوة لا تقتصر على الرمي فقط، بل يندرج فيها السلاح وكل ما من شأنه يساعد على قتال العدو.

1 - الفجر: 23.

2 - الأنفال: 60.

ولعلنا نتبين منهج ابن عطية في هذا، وهو الالتفات إلى المقاصد وعدم الاكتفاء على بظاهر النص، طالما أن المعاني تقبل ذلك ولا تؤدي إلى تعارض مع الحديث. وهذا المنهج في التوجيه يؤكد أهمية اعتبار المقصد من الكلام (وهو عنصر غير لغوي) وأثره في توجيه المعاني.

ولا يغيب عن ابن عطية الاستئناس بالحديث النبوي لتعزيز المعنى، فعند تفسيره : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ ،[1] قال: "الآية بسط في التسلية أي لا تهتم للدنيا وأهلها فأمرها وأمرهم أقل بفنائه وذهابه، فإنا إنما جعلنا ما على الارض زينة وامتحانا وخبرة..." ثم قال: " وفي معنى هذه الآية، قول النبي ﷺ: "الدنيا خضرة حلوة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء".[2]

ومن ثم يمكن القول بأن للحديث باعتباره أحد العناصر الخارجية في السياق أثر قوي في التفسير.

2- الأحداث التاريخية والظروف الاجتماعية:

يستعان لفهم ما أوجز ذكره من قصص، وما أشير إليه من أخبار وحوادث بالرجوع إلى أخبار الأمم وتاريخها، لتتضح الصورة أكثر، ولنفهم المغزى من وراء ذلك.

فلا يمكن فهم الآيات بمجرد الأدوات اللغوية، بل لا بد من الإحاطة بجوانبها التاريخية والوقوف عبلى تفاصيلها الحقيقية.[3]

1 - الكهف: 7.

2 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج3، ص496.

3 - السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، خليل خلف بشير العامري، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 9، العدد 2، جامعة البصرة، 2010، ص14.

فسورة الفيل تنبيه على الاعتبار في أخذ الله تعالى لأبرهة ملك الحبشة ولجيشه حين أم به الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يركبه، ليعلم الكل أن الأمر كله لله، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته، حين لم تغن الأصنام شيئا.

وبالرجوع إلى أخبارهم يتضح وجه النعمة ويظهر مغزى التذكرة.

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ ،[1] ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ ،[2] ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾.[3] فلا تحصل على فهم مستقيم لهذه الآيات ما لم تقلب النظر في صفحات تاريخ البلاد وأخبار العباد.

"أما سورة المزمل، والمسد، والمدثر، والجن، لا يتأتى لنا فهمها فهما كاملا ما لم نحط إحاطة تامة بتفاصيل سيرة المصطفى ﷺ".[4]

ونفس الأمر بالنسبة للسياق الاجتماعي، فهو متمم للمعنى لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير النصوص.

ولعلّ مراد الآية التالية: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾،[5] لا تتبين وجه النهي، إلا لما تعلم أن جعل النساء كالمال والعضل هو من سير الجاهلية، ولقد زجر هم القرآن عن ذلك كرامة للمرأة وصونا لها.[6]

1 – البروج: 4

2 – الفجر: 9

3 – سبأ: 15.

4 – السياق أنماطه وتطبيقاته، ص51.

5 – النساء: 19

6 – ينظر : المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص26.

وفي بعض الآيات ما يشير إلى النهي عن العادات السيئة التي كانت سائدة في الجاهلية كوأد البنات تجنبا للعار وقتل الأولاد خوفا من الفقر.

من مثل قوله تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾،[1] "الكثير" في هذه الآية يراد به من كان يئد من مشركي العرب، و"الشركاء" ها هنا الشياطين الآمرون بذلك المزينون له والحاملون عليه أيضا من بني آدم الناقلين له عصرا بعد عصر إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتباعته في الآخرة، ومقصد هذه الآية الذم للوأد والإنحاء على فعلته".[2]

و كذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ ﴾، [3] وهذه الآية نهي عن الوأد الذي كانت العرب تفعله، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴾،[4] ويقال كان كان جهلهم يبلغ أن يغذو أحدهم كلبه ويقتل ولده".[5]

وفي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، [6] فمما يعين على فهم معاني الأنصاب والأزلام على حقيقتها هو النظر إلى معتقدات العرب وعاداتهم في الضبح والسفر ونحوه .[1]

1 – الأنعام: 137.
2 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص349.
3 – الأنعام: 151.
4 – التكوير: 8.
5 – المصدر السابق، ج2، ص451.
6 – المائدة: 90.

ونخلص في ختام ما تقدم بيانه: أنه لا مناص من اعتبار السياق التاريخي والاجتماعي اثناء تأويل النصوص لما للأحداث التاريخية والظروف الاجتماعية من أثر بالغ في الكشف عن المعنى المراد.

3- المعطيات الثقافية:

يحمل الخطاب القرآني رسالة لا تنفصل عن ثقافة المتلقين، تهدف إلى تصحيح الثقافة السائدة، وتسعى لتأسيس ثقافة بديلة "بيد أن هذه الثقافة البديل ليست مفارقة بالكلية للثقافة التي تثور عليها أو تدحضها، وإلا أمكن لها أن ترسخ أقدامها في الواقع".[2]

وما جاء به الخطاب القرآني يمس عقائد الناس وسلوكهم، وجميع حياتهم داعيا إلى التغيير الافكار والمعتقدات وتوجيه الاهتمامات وضبط السلوكات، وإصلاح أحوال العباد والبلاد.

ولفهم فحوى الخطاب وإدراك كيفية التغيير كان لابد من "معرفة عادات العرب في أفعالها وأقوالها وجاري أحوالها حال التنزيل، وإن لم يكن ثم سبب خاص، لا بد لمن خاض في علم القرآن منه، وإلا وقع في الشبه والإشكالات التي يتعذر الخروج منها إلا بهذه المعرفة".[3]

فمثلا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

1 - ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2 ، ص 232-233.

2 - النص القرآني من الجملة إلى العالم، وليد منير، المعهد العالي للفكر، الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية، العدد14، ط1، القاهرة، 1997. ص 35.

3 - الموافقات، الشاطبي، ج3، ص 350-351.

ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ،[1] (النسيء) على وزن فعيل مصدر بمعنى التأخير، تقول العرب أنسأ الله في أجلك ونسأ في أجلك. ومنه قول النبي ﷺ : "من سره النساء في الأجل والسعة في الرزق فليصل رحمه"

وعن تفسير معناه: قال والنسيء هو فعل العرب في تأخيرهم الحرمة، وقوله "زيادة في الكفر" أي جار في كفرهم بالله وخلاف منهم للحق، فالكفر متكثر بهذا الفعل الذي هو باطل في نفسه.

ومن بين ما ستشهد به على هذا المعنى، قول الشاعر:

وقد علمت معدّ أن قومي *** كرام الناس أن لهم كراما

فأي الناس فاتونا بوتر*** وأي الناس لم تعلك لجاما

ألسنا الناسئين على معد *** شهور الحل نجعلها حراما

إذا صدر الناس من منى يتوجهون إلى رجل منهم لا يعاب عندهم ولا يرد له قضاء فيقولون أنسئنا شهرا أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر، فيستحلوا الشهر الحرام ويعوضونه بآخر، ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد، فأزالوا بذلك الفضيلة التي خص الله بها الأشهر الحرم، كما بين ابن عطية.[2]

فقد استند على شرح (الفعل المحظور) من مأثوراتهم، وفسر بناء على ما كان من عادتهم وتقاليدهم، ليخلص إلى بيان وجه النهي عن التلاعب بالأشهر الحرم.

ومما سبق ندرك أن فهم بعض الآيات متوقف على معرفة عادات العرب وتقاليدها في الجاهلية.

1 - التوبة: 37.

2 - ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ج3، ص31.

ومن المعرفة بمعبوداتهم، نفهم معنى تخصيص "الشعرى"، في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ﴾ ،[1] قال ابن عطية: "والشعرى نجم في السماء، وكانت خزاعة من العرب ممن يعبد هذا النجم فلذلك خصت بالذكر. و لم تعبد العرب من النجوم غيره، فلذلك عُيِّن في هذه الآية.[2]

أفرءيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى، فـــ (اللات) اسم صنم كانت العرب تعظمه، ورُجِّح مكان وجوده بالطائف لقول الشاعر:

وفرّت ثقيف إلى لاتها *** بمنقلب الخائب الخاسر

والعزى صخرة بيضاء كانت العرب تعبدها تعظمها، ومناة كانت أعظم هذه الأوثان قدرا وأكثرها عابدا، وكانت الأوس والخزرج تهل لها، ولذلك قال تعالى: "الثالثة الأخرى" فأكدها بهاتين الصفتين، كما تقول رأيت فلانا وفلانا.

وفي قوله: "ألكم الذكر والأنثى"، إشارة لما كانوا يقولون عن الملائكة: هي بنات الله.

ونخلص من كل ما سبق أن المعطيات الثقافية من شأنها أن تزيح الستار عمّا غمض من المعاني والتبس، وتهدي إلى كشف المقاصد من الخطاب، وهذا ما يدلّ على عظيم أثرها في تأويل النصوص وتوجيه المعاني.

4- سنن العرب في كلامها:

نزل القرآن: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾،[3] ولهذا فطريق فهمه يكون وفق سننهم وعلى مقتضى المعهود من أساليبهم في التعبير، جريا على سننهم في الكلام، ووفق أعرافهم في البيان.

1 - النجم: 48-49.

2 - ينظر: الكشاف، الزمخشري، ج 4، ص 428، وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج 4، ص 422.

3 - الشعراء: 195.

قال الشاطبي: "الشريعة عربية، وإذا كانت عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم، لأنهما سيان في النمط ما عدا وجوه الإعجاز..".[1]

لذا كان الاحتكام إلى قوانين العرب في كلامها عند توجيه المعنى وترجيح الدلالات المحتملة هو الفيصل في النزاع، فقد يوجه المعنى بناء على استعمال ورد عندهم، أو يرد آخر نظرا لعدم ثبوت نظيره سماعا أو لمخالفته سننهم قياسا. وبهذا الاعتبار تصبح سنن الكلام من بين ما يحيط بالحدث اللغوي ويسهم في تحليله.

وفي تفسير المحرر الوجيز نجد ابن عطية كثير الاعتماد على قوانين العرب في كلامها، ومن ذلك عند تبريره لعود الضمير على غير مذكور، أثناء تفسيره قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾،[2] قال: "الضمير في "فإنّه" عائد على الله عز وجل، والضمير في "نزّله" عائد على جبريل عليه السلام، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي، وقيل: الضمير في "إنّه" عائد على جبريل وفي "نزّله" على القرآن، وخصّ القلب بالذكر لأنّه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف، وجاءت المخاطبة بالكاف في "قلبك" اتساعا في العبارة إذ ليس ثمّ من يخاطبه النبي ﷺ بهذه الكاف، وإنما يجيء قوله: فإنّه نزّله على قلبي، لكن حسن هذا إذ يحسن في كلام العرب أن تحرز اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول ويحسن أن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له، كما تقول لرجل: قل لقومك لا يهينوك، فكذلك هي الآية ونحو من هذا قول الفرزدق:

ألم تر أني يوم جو سويقة *** بكيت فنادتني هنيدة ما ليا

فأحرز المعنى ونكب عن نداء هنيدة "مالك".[3]

1 - الموافقات، الشاطبي، ج2، ص 266.

2 - البقرة: 97.

3 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج1، ص 184.

ومن ذلك أيضا: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ،[1] وقال ابن عباس والربيع وغيرهم: "السعة" هنا هي السعة في الرزق، وقال قتادة: المعنى سعة من الضلالة إلى الهدى ومن العيلة إلى الغنى، وقال مالك: السعة سعة البلاد". ثم أورد تأويله قائلا:" والمشبه لفصاحة العرب أن يريد سعة الأرض وكثرة المعاقل، وبذلك تكون "السعة" في الرزق واتساع الصدر لهمومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرح، ونحو هذا المعاني قال الشاعر:

لكان لي مضطرب واسع*** في الأرض ذات الطول والعرض

ومنه قول الآخر:

وكنت إذا الخليل رام قطعي *** وجدت وراي منفسحا عريضا

وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً ﴾ .[2]

ومن الاحتكام إلى عرف العرب ما جاء في تأويل "ليس كمثله شيء"، في قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .[3]

"الكاف مؤكدة للتشبيه، فبقي التشبيه أوكد ما يكون، وذلك أنك تقول: زيد كعمرو فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زيد كمثل عمرو، ومن هذا قول أوس بن حجر:

وقتلى كمثل جذوع النخيـــ *** ـــل يغشاهم سيل منهمر

ومنه قول الآخر:

سعد بن زيد إذا أبصرت فضلهم *** ما إن كمثلهم في الناس من أحد

1 - النساء: 100.

2 - النساء: 97.

3 - الشورى: 11.

فجرت الآية في هذا الموضع على عرف كلام العرب" ثم بعد ما قال: "وذهب الطبري وغيره إلى أن المعنى: ليس كهو شيء، وقالوا لفظة مثل في الآية توكيد أو واقعة موقع هو"، عقّب عليه بقوله: "ومما يؤيد دخول الكاف تأكيدا أنها قد تدخل على الكاف نفسها، وأنشد سيبويه:

وصاليات ككما يؤثفين".[1]

ولربما ضعف قراءة تبعا لضعف الاستعمال، ففي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾،[2] ذكر أن قراءة الجماعة سوى ابن عامر "وكذلك زين" بفتح الزاي "قتل" بالنصب "أولادهم" بكسر الدال "شركاؤهم" وهذه أبين قراءة" ثم ذكر قراءة ابن عامر: " "وكذلك زين" بضم الزاي "قتل" بالرفع "أولادهم" بنصب الدال "شركائهم" بخفض الشركاء" وعقب عليها قائلا: "وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب، وذلك أنه أضاف القتل إلى الفاعل وهو الشركاء، ثم فصل بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظروف في مثل هذا إلا في الشعر كقوله:

كما خط بكف يوما *** يهودي يقارب أو يزيل

فكيف بالمفعول في أفصح الكلام؟ ولكن وجهها على ضعفها أنها وردت شاذة في بيت أنشده أبو الحسن الأخفش وهو:

فزججته بمزجة *** زجّ القلوص أبي مزادة

وفي بيت الطرماح وهو قوله:

1 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج5، ص27.

2 - الأنعام: 137.

يطفن ببحوزي المرابع لم يرع *** بواديه من قرع القسي الكنائن

والشركاء على هذه القراءة هم الذين يتأولون وأد بنات الغير فهم القاتلون."[1]

ومما سبق يتبين أثر معطيات السياق الخارجي المتمثلة باستعمال العرب وعاداتها في كلامهم في توجيه المعنى، عند ابن عطية.

وخلاصة القول أنه مادام النص القرآني منزل بلسان العرب فلا بد من الخضوع لسننهم في الكلام وأعرافهم وتقاليدهم في الأسلوب والبيان.

5- القاعدة النحوية:

القواعد النحوية يعتمد عليها أحيانا في تحديد الدلالة التركيبية أثناء توجيه المعنى، وهذا يختلف عن الاحتكام إلى سنن العرب في كلامها، ذلك أن سنن الكلام دليل نقلي مبني على السماع، "في حين أن القاعدة حكم نظري أو مقولة نظرية بنيت على الدليل النقلي أو المادة السمعية"[2]

"وهي دليل من خارج التشكيل اللغوي للنص المحلل، لأنها مقولات نظرية استخلصت وأصبحت زادًا ثقافيًا يتعلمه المفسر، شأنها شأن المعلومات الأخرى التي يستقيها من خارج النص في توجيه المعنى وضبطه".[3]

ونسوق فيما يلي تأويلا لابن عطية بناه على القواعد النحوية المقررة عند النحاة، ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴾،[4] وأما قوله "أحصى" فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماض، و"أمدا" منصوب به على المفعول، و"الأمد الغاية"، وتأتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي

1 - المصدر السابق، ج2، ص349.

2 - أثر السياق الخارجي في توجيه الدلالة التركيبية لدى مفسري القرآن الكريم، محمود حسن الجاسم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها، العدد 12، فبراير 2014، ص24.

3 - المصدر نفسه، ص 25.

4 - الكهف: 12.

أمدها على الحقيقة، وقال الزجاج: "أحصى" هو أفعل، و"أمدا" على هذا نصب على التفسير، ويلحق هذا القول من الاختلال أن أفعل من الرباعي قد كثر، كقولك ما أعطاه للمال، وآتاه للخير، وقال النبي عليه السلام في صفة جهنم: "هي أسود من القار" وقال في صفة حوضه عليه السلام: "ماؤه أبيض من اللبن"، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه "فهو لما سواها أضيع" وهذه كلها أفعل من الرباعي، وقال مجاهد: "أمدا" معناه عددا، وهذا تفسير بالمعنى على جهة التقريب، وقال الطبري: نصب "أمدا" بـــ"لبثوا"، وهذا غير متجه."[1]

وهكذا نلاحظ أنه بنى صحة تأويله على ما يوافق القواعد النحوية المقررة من قبل النحاة، ورد التأويلات التي أخلت بتطبيق القواعد النحوية.

وفي تأويله قال: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُواْ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾،[2] قال: "ولعبد مؤمن" مملوك "خير من مشرك" حسيب، ولو أعجبك حسنه وماله حسبما تقدم، وليس التفضيل هنا بلفظة "خير" من جهة الإيمان فقط لأنه لا اشتراك موجود في المعاشرة والصحبة وملك العصمة وغير ذلك، وهذا النظر هو على مذهب سيبويه في أن لفظ "أفعل" التي هي للتفضيل لا تصح حيث لا اشتراك. كقولك: "الثلج أبرد من النار"، و"النور أضوأ من الظلمة"، وقال الفراء وجماعة من الكوفيين: تصح لفظة "أفعل" حيث الاشتراك وحيث لا اشتراك، وحكى مكي عن نفطويه أن لفظة التفضيل تجيء في كلام العرب إيجابا للأول ونفيا عن الثاني."[3]

وابن عطية جعل التفضيل هنا حاصل فيما فيه اشتراك بين المؤمن والمشرك جريا على مذهب سيبويه الذي قدمه، وأعقبه بقول الكوفيين المخالف لراي البصريين، بيد أنه لم يدحضه

1 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج3، ص498.

2 – البقرة: 221.

3 – المصدر السابق، ج1، ص295.

لأن هذا الاختلاف فيما يسع فيه تعدد الآراء وتباينها بين المذاهب النحوية لا مناص منه، ولا سبيل لوقفه.

وخلاصة القول أن القواعد النحوية المقررة بين النحاة، تعد معيارا ثابتا يستند إليه في توجيه المعنى وتقريره.

6- أقوال السلف وأراء السابقين:

أ- أقوال السلف:

نعني بالسلف صحابة رسول الله ﷺ والتابعين.

وصحابة رسول الله ﷺ حيث أنهم من قومه وهم أهل اللسان العربي، فلا ريب أنهم أدرى الناس فهما بلغة القرآن وأعلمهم بأساليبه وضروب بيانه، وأعلم الخلق بأحوال العرب وعاداتهم ولأنهم عاصروا هبوط الوحي فهم أفقه الناس علما بملابسات التنزيل وشاهدوا عيان لأسباب النزول.

وإضافة لعدلهم وحسن صحبتهم لرسول ﷺ، فقد اجتمع لهم ما لم يتوفر لغيرهم، وصارت أقوالهم وأفعالهم أوثق شاهد على تفسير كتاب الله، وفي هذا المعنى ورد أنه " ...إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، ولا سيما علماؤهم وكبراؤهم".[1]

ويتبع هذا أقوال التابعين التي تأتي في مرتبة تالية لأقوال الصحابة صنو درجة ترتيب التابعين من بعد صحابة رسول الله، لكونهم مباشرون لهم تماما، وهم المقتدون بهم في أقوالهم وأعمالهم والناقلون عنهم علومهم وفقههم.

1 - تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ج1، ص7.

واعتماد ابن عطية على أقوال المفسرين من أهل السلف، وتتبعه لآرائهم، توجيها وترجيحا، هو من الكثرة والوضوح في تفسيره بحيث تغني الإشارة إلى ذلك والإحالة عليه عن ذكره في هذا البحث.

ب- أراء السابقين:

تعد آراء العلماء السابقين من جملة المعطيات الخارجية التي يعتمد عليها المفسر في توجيه المعاني وتفسير النصوص، "إذ يبدو أن الإرث الاجتماعي لا يحيل إلى اللغة بوصفها نسقًا من الضوابط الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية المعهودة في لغة الجماعة فقط، بل إنه يحيل إلى أمور أخرى في اللغة، أي: إنه يشمل المواصفات الثقافية التي أنتجتها من خلال استعمالها وتاريخ التأويلات السابقة."[1]

فيأخذ المفسر أقوال المفسرين السابقين وآرائهم بالحسبان، ثم يعمد إلى ترجيح وجه على آخر، مستمدًا ترجيحه من تفسير الآية عند بعض المفسرين السابقين، أوقد يسوق رأي العلماء السابقين، لتعزيز الأخذ بالوجه، ولربما أضاف إليه وجها آخر يراه مناسبا لتأويل الآية، ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا﴾.[2]

قال جمهور المفسرين: معنى هذه الآية: وما كان في إذن الله وفي أمره للمؤمن أن يقتل مؤمنا بوجه، ثم استثنى استثناء منقطعا ليس من الأول، وهو الذي تكون فيه إلاّ بمعنى لكن والتقدير لكن الخطأ قد يقع.

وهكذا كقول الشاعر:

أمسى سقام خلاء لا أنيس به *** إلا السباع وإلا الريح بالغرف"

1 - أثر السياق الخارجي في توجيه الدلالة التركيبية لدى مفسري القرآن الكريم، محمود حسن الجاسم ، ص34.

2 - النساء: 92.

ثم أضاف: " ويتجه في معنى الآية وجه آخر، وهو أن تقدر "كان" بمعنى استقر ووجد كأنه قال، وما وجد ولا تقرر ولا ساغ "لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ"، إذ هو مغلوب فيه أحيانا فيجيء الاستثناء على هذا غير منقطع، وتتضمن الآية على هذا إعظام العمد وبشاعة شأنه، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تتكلم بهذا إلا ناسيا، إعظاما للعمد والقصد مع خطر الكلام به البتة".[1]

وهكذا تكون آراء السابقين من جملة المعطيات الخارجية التي تقود المفسر إلى التوصل للمعنى الذي يرتضيه.

ومن بين العلماء السابقين الذين يستشهد بهم ويعوّل على أقوالهم هم النحاة.

"فآراء النحاة التي تساق تعد أصولًا يجب أن تراعى"،[2] وتساق آراؤهم إما لتعزيز الأخذ بوجه ما، أو لتبرير الرد على وجه مرفوض.

وفيما يلي نسوق تفسيرا يعتمد فيه ابن عطية على سوق أراء النحاة لبيان معنى الآية: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾.[3]

و"قعيد" معناه: قاعد، وقال قوم هو بمنزلة أكيل، فهو بمعنى مقاعد وقال الكوفيون: أراد قعودا فجعل الواحد موضع الجنس، والأول أصوب لأن المقاعد إنما يكون مع قعود الإنسان، وقال مجاهد: "قعيد": رصد، ومذهب سيبويه أن التقدير عن اليمين قعيد، فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأول ومثله عنده قول الشاعر: وعزة ممطول معنى غريمها

ومثله قول الفرزدق:

إني ضمنت لمن أتاني ما جنى *** وأبى وكان وكنت غير غدور

1 – المحرر الوجيز، ابن عطية، ج2، ص92.

2 – أثر السياق الخارجي في توجيه الدلالة التركيبية لدى مفسري القرآن الكريم، محمود حسن الجاسم، ص34.

3 – ق: 17.

وهذه الأمثلة كثيرة: ومذهب المبرد، أن التقدير على اليمين (قعيد) وعن الشمال فأخر "قعيد" عن مكانه ومذهب الفراء أن لفظ "قعيد" يدل على الاثنين والجمع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر".[1]

نلاحظ من المثال الذكور، جهد ابن عطية المبذول في تقصي أراء النحاة، مما يدل على أهمية اعتبار أقوالهم في توجيه معنى الآية، وقوة أثره في التأويل.

1 - المحرر الوجيز، ابن عطية، ج5، ص160.

الخاتمة

في ختام هذه الدّراسة يمكننا أن نبرز أهم نتائجها، والمتمثّلة فيما يلي:

- إن السياق هو الغرض الذي ينتظم به جميع ما يرتبط بالنص من القرائن اللفظية والحالية.
- تقسيم السياق إلى قسمين لغوي وغير لغوي، أدرك مفهومه العلماء الأوائل وساروا على ذلك في تطبيقاتهم، وإن لم يفصلوه تعريفا وتنظيرا.
- علم السياق القرآني علم عظيم المنزلة رفيع القدر ، وهو من أهم ما يوصل للفهم الصحيح لكتاب الله تعالى؛ إذ هو الطريق الأسلم لجعل كلام الله متناسباً منتظماً، وهذا هو الأنسب لكتاب الله المعجز المحكم.
- يلزم مراعاة الظروف الحافة بالنص للتوجيه السليم للمعاني.
- تتكامل جميع العناصر غير اللغوية من أجل توضيح مقاصد الخطاب.
- لا يوجد تعارض بين دلالة السياق وغيرها من القرائن.
- تبين من خلال الدراسة التطبيقية، قوة الاعتماد على المقاصد من الخطاب الشرعي وعدم القصور على ظاهر النصوص.
- وأن الجهل بالظروف الملابسة للنص القرآني أو تجاهلها يوقع في الخلاف ويسبب التعارض في الأفهام ويبعد عن فهم المراد.
- يعتبر ابن عطية من أئمة اللغة والتفسير الآخذين بالسياق في التفسير، حيث استطاع أن يستثمر كل ما يحف بالنص القرآني من قرائن ومعطيات ملابسة بغية الوصول إلى المراد من الخطاب الشرعي وتحقيق مقاصد الشريعة في مجالات العقيدة والعمران.
- يعتبر السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم.
- ومن هنا فيمكن القول بأن السياق أصل من أصول التفسير التي يجب الاعتماد عليها في تفسير كتاب الله تعالى.

وفي الختام يمكن القول أن موضوعنا هذا مازال يحمل في طياته الكثير من الدرر، ويفتح آفاقا للبحث المثمر والذي يعود بالنفع على المكلفين بالخطاب الشرعي والناس كافة، وما على الباحثين إلا الغوص في خضم هذه الدراسة من أجل اكتشاف المزيد من الإشكاليات تمثل إنطلاقة جديدة لبحوث جادة بإذن الله.

قائمة

المصادر والمراجع

* القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.

أولا: الكتب المطبوعة

1. الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، تح: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1988.
2. أدب الكاتب، ابن قتيبية، تح: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، ط1، بيروت، 1982.
3. أساس البلاغة، الزمخشري، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922.
4. أصول السرخسي، محمد بن أحمد السرخسي، تح: أبو الوفاء الأفغاني، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1414هـ.
5. إعجاز القرآن، الخطابي، تح: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، د ت.
6. الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط10، بيروت، 1992.
7. إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، تح: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت، 1973.
8. أنوار التنزيل، البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، ط1، 1418هـ.
9. الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، شرح وتعليق: محمد عبد المنعم خفاجي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1989.
10. البحث الدلالي عند الأصوليين، محمد يوسف حبلص، مكتبة عالم الكتب، ط1، 1991.
11. البحر المحيط، أبو حيان، دار إحياء التراث العربي، ط2، بيروت-لبنان، 1990.
12. بدائع الفوائد، ابن قيم الجوزية، تح: محمد علي محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط2، 1427هـ.
13. البرهان في أصول الفقه، الجويني، تح: عبد العظيم الدين، طبع على نفقة الشيخ خليفة آل ثاني، 1399هـ.
14. البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مصر.
15. بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، أحمد بن يحي الضبي، تح: روصية السويفي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1417هـ.

16. بغية الوعاة، السيوطي، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1399هـ.
17. البيان في روائع القرآن، تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، 1413هـ.
18. البيان والتبيين، الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجاحظ، ط2، القاهرة، 1970.
19. تأريخ قضاة الأندلس، الحسن النباهي الأندلسي، دار الأفاق الجديدة، 1400هـ.
20. التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، تونس، 1984.
21. التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد بن جزي الكلبي، دار الفكر، دت.
22. التفسير القيم، ابن القيم الجوزية، نقلا من كتاب أصول التفسير وقواعده، خالد عبد الرحمن العك، دار النفائس، ط2، بيروت، 1986.
23. تفسير النصوص في الفقه الإسلامي، محمد أديب صالح، بيروت، المكتب الإسلامي، ط3، 1404هـ.
24. حاشية البناني على شرح الجلال المحلي على متن جمع الجوامع للسبكي، عبد الرحمن بن جاد البناني، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط3، 1356هـ.
25. حروف المعاني، الزجاجي، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، ط2، بيروت، 1986.
26. الخصائص، ابن جني، تح: محمد علي النجار، دار الشؤون الثقافية العامة، ط4، بغداد، 1990.
27. دراسات في اللغة والمعاجم، حلمي خليل، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1998.
28. دراسات في علم اللغة، كمال بشر، دار المعارف، مصر، 1969.
29. دراسة المعنى عند الأصوليين، طاهر سليمان حمودة، الدار الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع.
30. الدلالة والنحو، صلاح الدين صالح حسنين، مكتبة الآداب، ط1، القاهرة.
31. دور السياق في الترجيح بين الأقاويل التفسيرية، محمد إقبال عروي، إدارة الثقافة الإسلامية، ط1، الكويت، 2007.
32. دور الكلمة في اللغة، أولمان، تر: كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة.
33. الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، ابن فرحون، تح: مأمون الحبان، دار الكتب

العلمية، ط1، بيروت، 1417هـ.

34. سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، 1953،

35. سير أعلام النبلاء، الذهبي، تح: بشار عواد ومحي الدين هلال السرحان، مؤسسة الرسالة، ط1، 1405هـ.

36. شرح اللمع، أبو إسحاق الشيرازي، تح: عبد المجيد التركي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1983.

37. الصحاح، الجوهري، تح: شهاب الدين أبو عمر، دار الفكر، ط1، 1418هـ.

38. صحيح البخاري، شرح محب الدين الخطيب، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت، 1400هـ.

39. علم الدلالة، بالمر، تر: صبري إبراهيم السيد، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1995.

40. علم اللغة (نشأته وتطوره)، محمود جاد الرب، دار المعارف، القاهرة، 1985.

41. علم اللغة الاجتماعي، كمال بشر، دار الثقافة العربية، 1994.

42. علم اللغة الاجتماعي، هدسون، تر: محمد عبد الغني، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1، بغداد، 1987.

43. القاموس المحيط، الفيروزآبادي، دار الكتب العلمية، ط1، 1415هـ.

44. قضايا اللغة في كتب التفسير، الهادي جطلاوي، دار محمد علي الحامي، ط1، صفاقس-تونس، 1998.

45. قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، محمد حبنكة الميداني، دار القلم، ط2، دمشق، 1989.

46. الكتاب، سيبويه، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط3، القاهرة، 1988.

47. الكشاف، الزمخشري، مكتب الإعلام الإسلامي في الحوزة العلمية، ط1، قم-إيران، 1414هـ.

48. كشف المعاني، ابن جماعة،

49. لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، ط1، بيروت.

50. اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979.

51. اللغة وعلم اللغة، جون ليونز، تر: مصطفى التوني، دار النهضة العربية، 1988.
52. اللغة في الثقافة والمجتمع، محمد أبو زيد، دار الكتب للطباعة والنشر، 1988.
53. مبادئ اللسانيات العامة، أندري مارتينيه، تر: أحمد الحمو، إشراف: عبد الرحمن الحاج صالح وفهد عكام، المطبعة الجديدة، دمشق، 1975.
54. مجموع الفتاوى، ابن تيمية،
55. محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة، شفيقة العلوي، أبحاث للترجمة والنشر، ط1، بيروت-لبنان، 2004.
56. المحرر الوجيز، ابن عطية، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت-لبنان، 2001.
57. المحرر الوجيز، ابن عطية، تح: المجلس العلمي بفاس، 1395هـ.
58. المستصفى من علم الأصول، أبو حامد الغزالي، تح: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1412هـ.
59. معجم المؤلفين، محمد خير رمضان يوسف، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 2004.
60. مفردات ألفظ القرآن، الراغب الاصفهاني، تح: صفوان داوودي، دار القلم، ط1، 1412هـ.
61. مقاييس اللغة، ابن فارس، تح: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، 1999.
62. المقتضب، المبرد، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، 1963.
63. مقدمة التفسير، الأصفهاني، مطبعة الجمالية، ط1، مصر، 1329هـ.
64. مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، دار الصحابة للتراث، ط1، طنطا-مصر، 1988.
65. المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، أبي محمد محمد القاسم الأنصاري السجلماسي، تح: علال الغازي، مكتبة المعارف، ط1، 1401هـ.
66. منهج الدرس الدلالي عند الامام الشاطبي، عبد الحميد العلمي، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2001.
67. الموافقات، الشاطبي، تح: محمد عبد الله دراز، دار المعرفة، ط2، بيروت، 1975.
68. الناسخ والمنسوخ، ابن حزم، تح: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، ط1،

بيروت، 1986.

69. النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار القلم، الكويت، 1984.

70. النحو والدلالة، محمد حماسة عبد اللطيف، ط1، القاهرة، 1983.

71. نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، عبد النعيم خليل،

72. نظرية السياق: دراسة أصولية، الزنكي،

73. نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، نهاد موسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1980.

74. نظم الدرر في تناسب السور، البقاعي، ط1، حيدرآباد، 1969.

75. نفح الطيب من عصر الأندلس الطيب، أحمد بن محمد التلمساني، تح: يوسف البقاعي، دار الفكر، ط1، بيروت، 1419هـ.

76. النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، تح: طاهر أحمد الراوي، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية لعيسى البابي الحلبي.

ثانيا: الرسائل الجامعية

77. أثر السياق في مبنى التركيب ودلالته (دراسة نصية من القرآن)، فتحي ثابت علم الدين، رسالة دكتوراه ، كلية الدراسات العربية والإسلامية، المنيا-مصر، 1994.

78. دلالة السياق، ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، رسالة دكتوراه، معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1442هـ.

79. دلالة السياق وأثرها في توجيه المتشابه اللفظي في قصة موسى، فهد الشتيوي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.

80. السياق القرآني وأثره في تفسير المدرسة العقلية، السعيد الشهراني، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 2006.

ثالثا: المجلات العلمية

81. السياق أنماطه وتطبيقاته في التعبير القرآني، خليل خلف بشير العامري، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، المجلد 9، العدد 2، جامعة البصرة، 2010.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
شكر وعرفان	
مقدمة	أ – د
فصل تمهيدي:	
السياق غير اللغوي بين التراث العربي	
والدرس الغربي	
تمهيد: مفهوم السياق وأقسامه	11
1- مفهومه	11
2- أقسامه	16
المبحث الأول: السياق غير اللغوي في الدرس الغربي	18
1- نشأته	18
2- تطوره	21
المبحث الثاني: السياق غير اللغوي في التراث العربي	23
1- بين النظرية والتطبيق	23
2- موازنته بالدرس الغربي	30
الفصل الأول:	
العناصر غير اللغوية وتوجيه المعنى	
في السياق القرآني	
تمهيد: مفهوم السياق القرآني وأهميته	36
1- تعريفه وأنواعه	36
أ – تعريفه	36
ب- أنواعه	38

2- أهميته 42

المبحث الأول: السياق غير اللغوي وصلته بعلوم القرآن 44

1- العناصر غير اللغوية في النص القرآني 44

2- علاقة السياق غير اللغوي بعلوم القرآن 45

المبحث الثاني: السياق غير اللغوي وتوجيه المعنى 51

1- مفهوم التوجيه في الاصطلاح التفسيري 51

2- دلالة السياق ومنزلتها بين القرائن 53

الفصل الثاني:

العناصر غير اللغوية وأثرها في توجيه المعنى

في تفسير "ابن عطية"

تمهيد: التعريف بتفسير "ابن عطية" و "علم التفسير" 57

1- التعريف بتفسير "ابن عطية" 57

2- التعريف بعلم التفسير 60

المبحث الأول: العناصر غير اللغوية المصاحبة لنزول القرآن

وأثرها في توجيه المعنى في "المحرر الوجيز" 63

1- المتكلم 63

2- المخاطب 71

3- زمان الكلام ومكانه 76

4- الأحداث المصاحبة 77

المبحث الثاني: العناصر غير اللغوية الملابسة للنص القرآني

وأثرها في توجيه المعنى في "المحرر الوجيز" 80

1- الحديث النبوي 80

2- الأحداث التاريخية والظروف الاجتماعية 84

3- المعطيات الثقافية 87

4- سنن العرب في كلامها 89

5- القاعدة النحوية 93
6- أقوال السلف وآراء السابقين 95
الخاتمة 99
قائمة المصادر والمراجع 102
فهرس الموضوعات 108